حائط غاندي

مجموعة قصصية

حائط غاندي

الطبعة الأولي ٢٠١٧

قصص

تأليف :

عزة رشاد

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

مراجعة لغوية:

محمد حمدي

رقم الإيداع : 2016/25582

الترقيم الدولي: 978-977-820-009-6

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

حائط غاندي

عزة رشاد

مجموعة قصصية

رسائل بظهر الغيب

منح الأديب «يحيى حقي» بطله لمصلحة البريد التي حمَّلته الأمانة في حقيبة صغيرة، يُعلِّقها على كتفه ويجوب بركوبته القرى والكفور، يوزع أظرفًا مغلقة، لكن بمجرد تسليمها للمرسل إليه، يدرك «البوسطجي» من ملامحه وأفعاله ما كان يحمله له: هناك جوابات تُفرح الناس، وأخرى تفعل العكس، يتنهد البوسطجي وربما يتفكه بما على الأظرف المتبقية من أغلاط الإملاء والعناوين متمتمًا: الحقيبة أكبر من حجمها، الحقيبة مستودع أسرار...

داخل المحل ذي الفترينات الزجاجية الوثيرة توقفت يد الشابة العشرينية عند حقيبة نسائية بيضاء، تحب اللون الأبيض كما يريحها أنه لا يستلزم ثيابًا شديدة التحديد، راعت حجم وعدد الجيوب والثنيات، إضافة إلى شرطها الخاص: جيب سري لا يمكن لأحدهم اكتشافه، صغير يكفي لشريط الحبوب، أما الواقي الذَكري فلم تعد تبتاعه، اشترطت أن يكون على «الزبون». تدفع الثمن وتستلم حقيبتها وتخرج، تجفل من صوت فرامل سيارة مفاجئة عند عبورها الشارع فتغمض عينيها..

يفتح غاندي «مخلاته» ويطيَّر حمامة، ظلت شريدة سنوات قبل أن تجد من يستقبل رسالتها، صار هو خلال هذه الفترة مريضًا بالفشل الكُلوي والهزال، لإضرابه عن الطعام بعدما فشل العصيان المدني أن يؤتي ثماره.

مخـلاة غانـدي لا تختلـف كثـيرًا عـن «بقجـة الدمّـور» تحملهـا المـرأة الأربعينيـة بيـد وبالأخـرى تمسـك بيـد ابنتهـا أم ضفيرتـين طويلتـين، وتقطعـان طريقًـا رفيعًـا بـين الغيطـان في غبشـة الفجـر، تنبههـما لسـعات الهامـوش والعـث، تتنشـقان النـدى ممزوجًـا برائحـة الـروث في المشـوار المرهـق، وإفطـار «العيـش المُلـدن والجـبن القريـش» يُهضـم في أثنـاء الطريـق الـذي ينتهـي بافتراقهـما عنـد بـاب المدرسـة؛ وعندمـا تخـرج البنـت مـن هـذا البـاب ظهـرًا سـتجد بقجـة الدمـور عـلى البـاب في انتظارهـا، ويـد أمهـا ممـدودة ككل يـوم: منديـل يـا حاجـة، منديـل يـا حـاج.

حقيبـة جوتـه الممتلئـة بخطابـات الغـرام لا تناسـب زماننـا، بـل هـي متهمـة بالغـش، ليـس غـش جوتـه في روايـات خياليـة تعتـصر دمـوع العشـاق، بـل غـش النفـس لأنـه لم يعـد هنـاك من يسـتحق. هـذا مـا أخـذ يفكـر بـه الشـاب أبـو نظـارات طبيـة سـميكة مـرددًا:

- ده زمن نيرون. لكن أبدًا ليس زمن جوته.

اعتـصر نفسـه لسـنوات في الكتابـة ثـم أعـادت لـه حبيبتـه أشـعاره وخطابـات غرامـه مذيلـة بنقطـة النهايـة، يخـرج صورهـما المشـتركة مـن حقيبتـه الصغـيرة ويمزقهـا ويرميهـا تحـت قدميـه، فيـصرخ الشـيخ الجالـس عـلى المقعـد المقابـل لـه بالمنتـزه:

- حرام تكسر الورد.

ينظر الشاب للصوت فيرى الشيخ يسد أذنيه بيديه متألمًا:

-أما تسمع صرخاته!

يحدق الشاب إلى مزق الأوراق بيده ويمصمص شفتيه متعجبًا:

-الكِبر عِبر صحيح.

مع شقشقة كل صباح ينهض الشيخ من فراشه ويعبئ الحقيبة بالسندوتشات والحلوى التي يحبها حفيده، وعندما رفع صوته وقال إنه خدع الله مِرارًا بنوايا توبة زائفة، ابتسم الحفيد فظهرت غمَّازة الحُسن على خده وقال:

-عفريت يا جدو. عفريت.

أما البنت أم ضفيرتين طويلتين التي تتلقف السندوتشات من الولد أبي شامة حُسن، وتركض بين صفوف مقاعد المنتزه لتعطي نصفها لأمها السارحة بمناديل بقجة الدمور، فلم تعبأ بالجد «الشيخ» ولا بكلماته.

تدلت الحقيبة البيضاء من على المقعد المجاور، عندما سمعت الشيخ يؤكد أن الله كان يصدق توبته كل مرة وينقذه من مصائب جمة، جذبتها الشابة في اللحظة الأخيرة قبل أن تهوي، وسَرحتْ متذكرة دعاء أمها كل يوم وهي تراها تملأ حقيبتها بالأوراق والماكياج والأمشاط:

-عقبال ما تمليها حفاضات وكوافيل.

أحقا؟ أتعني هذا حقا؟

تدعو بإخلاص؟ تظنني سأتزوج مثل أي واحدة؟

مـررت أناملهـا فـوق موضـع الجيـب الـسري وتمتمـت بدعـاء وهـي تتابـع ركـض الأطفـال، حـك الشـيخ بـين فخذيـه وبـدا متألمًـا، ثـم قلـب الحقيبـة فجـأة فهـوت بقايـا السندوتشـات عـلى الأرض، فهمـس كأنـه لا يريـد أن يسـمعه أحـد: دي كلهـا ذنـوب.

اقـترب الولـد يلملـم بقايـا وجبتـه المُغـبرة ويجـري، بينـما الشـيخ يشـنهف بدموعـه كلـمات عـن ندمـه لأنـه لم يكـف عـن خـداع اللـه. وراح يهـز الحقيبـة ليتخلـص مـما تبقـى فيهـا، ويدعـو اللـه أن يتوقـف عـن دعمـه حتـى لا تثقـل كفتـه الداكنـة، توقـف الشـاب أبـو نظـارات عـن تمزيـق رسـائله ضاربًـا كفًـا بكـف، ثـم نهـض واقـترب مـن الشـيخ يربـت كتفيـه بحنـان، فالتقـت عينـاه في تلـك اللحظـة بعينـي الشـابة الممسـكة بحقيبتهـا البيضـاء، ابتسـم لهـا، فيـما كانـت تتمنـى في نفـس اللحظـة ألا يـأتي الزبـون وأن يسـتجيب اللـه لدعـاء أمهـا. وكانـت سـيدة المناديـل الورقيـة مـا زالـت تـدور، فيـما توقـف بوسـطجي يحيـى حقـي في مـكان وزمـان بعيـد وفتـح الرسـائل لتسريـة الوقـت، لكنـه عجـز عـن إغلاقهـا فاشـتبكت الحكايـات وتداخلـت المصائـر.

أغلـق المنتـزه الآن لأن هنـاك مـن تسـلل ووضـع بـين صفـوف المقاعـد الخشـبية حقيبـة «نـيرون». كان بداخلهـا قنبلـة منزليـة الصنـع حسـب خـبراء المتفجـرات. وجـدوا بجـوار الأشـلاء بقايـا

بقجـة دمـور، وعدسـات طبيـة سـميكة، وشريـط مـن حبـوب منـع الحمــل، وورد دهســته الأقـدام.

عراء

ببيجامتك الخفيفة تقفين بينهما، طولكِ لا يزيد كثيراً على ارتفاع الكرسي الذي يجلس عليه كلٌ منهما مرتديًا الروب الصوفي الثقيل الذي ينسدل حتى يصل إلى الأرض مغطيًا القدمين. واقفة أنتِ بين الكرسيين المتقابلين تستقبلين تراشق الكلمات منها إليه ومنه إليها:

- انزلي قولي للبواب يجيب المأذون.

- لأ ماتنزليش.

تميلين للرأي الأول وتتفتق بداخلك بذرة حسٍ ميلودرامي، عن صبية معذبة وضائعة بين رجل وامرأة شاءت الظروف أن يكونا أمكِ وأبيكِ، لكن قدميك متجمدتان على البلاط، ولا يلاحظ أي منهما أنكِ حافية أو أنكِ بحاجة إلى عناق.

قبعة وبدائل أخرى

قالت لكِ نفسك: بيدك أفضل من أن يكون بيد «عمرو»، تفكرين في الأمر، وفي «عمرو»، وعلى الفور تحضرين المقص المناسب وتأخذين شهيقًا عميقًا، عدة مرات، كي تستجمعي شجاعتك وتقومي بهذه الخطوة، ثم شهيقًا آخر كي تركزي ذكاءك وتنجحي في استخلاص شيء طريف من هذا الموقف، شيء يُهون المفاجأة على أهلك، مثلاً كمديح النجمة «ناتالي بورتمان» على أدائها المذهل في فيلم: V for Vendetta

أو كإعداد خطبة عصماء لمهاجمة الفكر الرجعي الذي ربط الأنوثة بأشياء تافهة مثل: نعومة الصوت، ونحولة الخصر، والشعر الطويل الذي أتحفنا «عبد الحليم حافظ» بمغازلته:

في موجة عبير بالشعر الحرير

ع الخدود يهفهف ويرجع يطير

قد يحلو لكِ التمحك في النسوية كفلسفة تستهدف العدالة وتطيح بالفروق الثانوية، أو حتى بالهيبية... إلخ، لكنك ستتجنبين استعراض ما يتداعى بذهنك من ذكريات، لأنها ليست مُشوقة، أو للصدق، ليست مُشرِّفة، مثل أبلة نادية التي كانت تقوم في أثناء فقرات الإذاعة المدرسية في طابور الصباح بالتفتيش على نظافة الثياب وقص الأظفار، ثم تتلهى بتفلية رؤوس البنات عسى أن تفوز بقملة سارحة هنا أو هناك، وتفشل كل محاولات

التهرب من تفليتها بالوقوف في آخر الطابور، أو ادِّعاء الإصابة بمغص مفاجئ، ومثل ذكرى المقلب الذي سببه الكوافير يوم زفافك عندما شد شعرك على بوكلات من أسلاك شرسة، فلم تفلح محاولاتك لفرد الشعر بعدها، وظل مبرومًا ومنكمشًا نحو فروة الرأس وكرس في الصور التذكارية عروسًا مهملة أو غبية، ثم ذكرى المخبر الذي جذب بكل قوته خصلة شعرك حتى رقعتِ بالصوت، فاعتمِد منذئذٍ شدُ الشعر كأسلوب ناجع لفض تظاهرات البنات.

يكفي إذن استعراض فضائل الارتياح من غسيل الشعر وتسريحه والاعتناء به، أو استعراض الخصلات بفخر وأخذ صور تذكارية معها «قبل التخلص منها»، وطرح المهام الجديدة: الاعتناء بالجلد: كريم من أجل فروة الرأس وغطاء لتجنب البرد، خفيفٌ في البيت - ربما ستكون «طاقية مكة» الخاصة بأبيكِ كافية، خفيفة وحنونًا وبها فجوة عقب كل غرزة تسمح بتنفس الجلد - وآخر ثقيل لأجل الخروج: قبعة من الموهير أو الصوف مثلاً، سيكون ضروريًا أن تشتري عدة قبعات تناسب ألوان الثياب: أسود، بُني، كُحلي، وستعتادينها، ربما البُنية تتآلف مع لون بشرتك أكثر من الأخريات، ربما وردتها الجانبية تمنحك بعض الوقت «بالتحجج بضبط تفتح الوريقات» لتفكري أو لترتبي أفكارك في أي لقاء أو عمل، ربما تتظاهرين بأنك مشغولة بضبطها ريثما يعبر من لا ترغبين في مصافحتهم، ستمنحك الفرصة لزحلقة من لا تحبينهم، وستُعبرين لها عن

امتنانـك بضغطـة ذات مغـزى، هـي أيضـا سـتتأثر بهـذا التقديـر وسـتفاجئك بمبـادرات لا تتوقعينهـا، كأن تتمايـل مـع اتجـاه الكاميرا لتمنـح وجهـك في الصـور اسـتدارة تفـوق الواقـع بكثـير، تفـوق مـا بإمـكان شـعرك في أفضـل حالاتـه وتسريحاتـه أن يفعـل، وكأن تنزلق فـوق أذنيـك في اللحظـة المناسـبة لتجنبـك سـماع كلـمات الرثـاء مـن أصدقائـك «الأذكيـاء!»، وإذا مـا مـررتِ بلحظـات صعبـة وغلبتـكِ دموعـكِ، فسـتجدينها هـي الأخـرى مبللـة، مـع أن مسـار دمعـك يتعـذر وصولـه إليهـا، فتتسـاءلين: أحقـا شـاطرتني البـكاء؟! ومـن أيـن تـأتي دموعهـا؟ ولهـذا فسـتحبينها وتعتادينهـا لدرجـة عـدم الاسـتغناء عنهـا حتـى لـو.. لـو عـاد الشـعر مجـددًا بعـد الانتهـاء مـن العـلاج.

«سـيعود الشـعر» أكـدوا لـكِ، ولكـن حتـى لـو.. لـو لم يعـد «حدثـتِ نفسـكِ» فيكفـي الارتبـاك الـذي سـيصيب المخـبر لـدى رؤيتـه للقبعـة، ويـده التـي سـتتجمد قبلهـا، لأن نـزع غطـاء رأس امـرأة يعتـبر مـن الكبائـر في بلادنـا، مـا سـيعطيكِ الفرصـة للمبـادرة بتسـديد لكمـة قويـة لـه ثـم تولـين هاربـة، أمـا في حـال حـدوث مـا يمنعـك مـن المشـاركة بالتظاهـرة فسـتقوم قبعتـك بتنبيهـك لـكي تفتحـي عينيـكِ وتتابعـا «أنـتِ وهـي» سـير التظاهـرة مـن شاشـة العـرض الكبـيرة بالمستشـفى.. الشاشـة التـي تشـبه الحيـاة تمامًـا.

غبار

ذكـروا أن امـرأة تنتعـل القبقـاب العـالي، تهـوى التجسـس بالنظـر مـن ثقـب البـاب وترفـض أن تلضـم «خيطًـا في إبـرة» أو ترفـع جَـرَّة مـاء عـن الأرض وعندمـا انتقدوهـا:

- ما تخلي ف عينك حصوة ملح يا مَرة.

ردت باستنكار:

- أنا سيدة القصر يا ولاد الكلب. انحنوا عند قدميّ.

جالـتْ الأسـواق ثـم ارتقـتْ المـولات، وخاضـتْ مسـابقات الجمال ونظـرتْ بتحـدٍ في أعـين كل الرجـال، وعندمـا وضعـوا صورتهـا عـلى «فيسـبوك» نالـت ملايـين اللايـكات والمشـاركات، ثـم اكتشـفتْ فوتوشـوبات تسـتغل حُسـنها بتحريفـات تصويريـة وتعليقـات سـخيفة ونوايـا عدوانيـة، ولهـذا التفتـت تشـوح بسـبابتها:

-موتـوا بغيظكـم يـا أوغـاد. لا يمكنكـم قتـلي لأني ميتـة أصـلاً. لسـتُ شـهرزاد التـي تحيـك الحيلـة إثـرَ الأخـرى كي تضيـف لحياتهـا يومـا، بـل أنـا ابنـة المـوت، بـل أنـا المـوت الـذي لا يمكنكـم الفـرار منـه، سـأدفنكم جميعـا بيـدي. أنـا السـلطانة «شـجرة الـدر»؛ سـأنتقم لـكل امـرأة ضربهـا زوج «ركوبتـه أكـثر رجولـة منـه»، لـكل بنـت تحـرش بهـا أوغـاد «الذبـاب أنظـف منهـم".

نجـح لسـانها السـليط، أكـثر مـن الـكلاب الثلاثـة التـي تتبعهـا

كظلهـا، في تطفيـش الفضوليـين، ولكـن يبـدو أن حصـاة قاسـية تدحرجـتْ تحـت فـردة قبقابهـا فـكادت السـلطانة تنزلـق أرضًـا «زرع بصـل» لـولا سـاعدي الـذي كان في خدمتهـا - بالطبـع لم تكـن مصادفـة فمنـذ علمـتُ بوصولهـا وأنـا أحـوم حولهـا، أمنّـي نفـسي بتحقيـق صحفـي مبتكـر يضعنـي في المـكان الـذي أسـتحقه - أجلسـتها عـلى أقـرب مقعـد حجـري في شـارع صـلاح سـالم حيـث التقينـا، وبأناقـة انحنيـتُ احترامًـا:

- وهل يخفى القمر يا صاحبة الجلالة!

ولهـذا لم ترفـض دعـوتي لتنـاول الشـاي في أحـد مقاهي «الحُسـين» وبعـد الصـلاة عـلى النبـي والثنـاء عـلى آل البيـت اسـتجمعتُ شـجاعتي وبادرتُهـا: لكـن المكتـوب يقـول إن بنـات جنسـك هـن مـن قتلنـكِ.

أقـرِّ لسـاني بأنهـا هـي بالفعـل شـجرة الـدر، ليـس فقـط بسـبب الثـوب المرصـع باللالـئ الـذي يجعلهـا تبـدو شـجرة مـن اللؤلـؤ، ولا لكونهـا تحمـل نفـس الملامـح الدقيقـة المتعاليـة تمامـا كـما في الصـورة، كـما تحمـل نفـس الـذكاء الاسـتثنائي وخفـة الـروح وسرعـة البديهـة، وإنمـا أيضـا لفـرادةٍ في طريقتهـا في الـكلام والضحـك والتطلُّـع والتـصرف لا تنتمـي لعصرنـا. انتبهـتُ عـلى صوتهـا يـرد:

- لا تصـدق. فمـن قتلنـي هـو كل رجـل اسـتكثر عـليّ حِكمتـي وبراعتـي في الحكـم وإدارة شـؤون الرعيـة.

استوقفتُها:

- وماذا عن نساء القباقيب؟ أجابتْ دونما اكتراث:

- جـواري جاريـة «وإن تـكُ حـرة». قبلـت أن يتـزوج زوجهـا بغيرهـا «يأتيهـا بـضُرّة»، أمـا أنـا فلـم أقبـل. هـذا هـو الفـرق بينـي وبينهـا، لكنـي أسـامحها عـلى أي حـال، فهـي في النهايـة ضحيـة مـن حرضوهـا عـليّ، ومـن قبلهـم هـي ضحيـة مـن جعلـوا الضعـف والهـوان يقـران في نفسـها حـد أنهـا تقتـل وفـاء لـزوج لم يكـن وفيًـا لهـا ولا ليـوم واحـد.

بـرزت شـفتاها وهـي تسـتطرد بمـرارة: كلهـم لم يكونـوا أوفيـاء. اسـألني أنـا.

أعقبـت كلامهـا بضحكـة طويلـة مغموسـة في المـرارة، ضحكـة امـرأة تعـرف أكـثر مـما تقـول.

- لكن أيضًا.. كان.. ثمة تظاهرات شعبية.

- لمَ يتظاهـر ضـدي البسـطاء الذيـن احترمتهـم وأغدقـت عليهم؟! أمـا تتسـاءل؟! ثـم مـاذا يهمهـم أن يحكمهـم رجـل أو امـرأة، خاصـة لـو حققـت هـذه المـرأة مـن العـدل مـا عجـز عنـه الرجـال عنه؟

عـلى الفـور ظهـر شـيخ هزيـل محنـي الظهـر يحتضـن عُـدة «تلميـع الأحذيـة»، ألقاهـا عـلى الأرض واقـترب يركـع عنـد طـرف ثوبهـا:

- السلطانة والختمة الشريفة خيرها وجمايلها عليّ من ساسي لراسي.

صرفَته بإشارة من طرف بنانها، ثم ضغطتْ أزرار هاتفها الجوال وبحثتْ، ضغطتْ حتى وضعتْ بين يدي الصور..

- انظر لهذه المجموعة. أما تراهم يتكتّلون كل مرة للنيل من أحد الشرفاء؟

تمعنت بوجوههم فقالت:

- لا ينتمون لثورتكم. فهؤلاء مأجورون. بلطجية وخريجو سجون.

لمحتُ أحدهم يسرق حذاء من على باب المسجد في أحد الفيديوهات. حركت الماوس وأتتني بصورة تظهر أحدهم يتحدث لأحد الكبراء. قالت:

- هذه شوارعكم. زمنكم. وهو نفس ما حدث في زمني. أصحاب المصالح والمولعون بالسلطة أتوا بالعبيد والغلمان والمساجين وزعموا أنها تظاهرات شعبية.

تحيرتُ في نفسي فيمن تقصد: توران شاه؟ أيبك؟ أقطاي؟ أسماء كثيرة أخرى أقل شهرة تقاسموا كلهم تلك المطامع والصراعات وإراقة الدماء.. حيرتني عيناها أكثر.. هل أصدقهما وأكذب المكتوب؟

أفقتُ من أفكاري فوجدتها قد اختفتْ، فقط تعثَّرتْ قدمي في لؤلؤة سقطتْ من ثوبها فالتقطتها ورحتُ أفركها في راحة يدي، ثم خبأتُها في أحد الكتب القديمة التي تُدون تاريخ تلك الفترة.

في اليوم التالي وجدتُها «بكامل تفاصيلها» في أحد المقاهي، مغمورة بإعجاب الكثيرين، سلطانة بحق، لكنها بدت قلقة، متعجلة، كأنها على موعد. فاجأتُها:

- وماذا عنكِ يا سلطانة؟ تبغين الانتقام من «الرجال» مبتكري المؤامرات والحروب فيما أنتِ تقلدينهم. أما افتتنتِ بالقوة، بالسلطة، بالمجد؟

لم تجب إلا بكلمة واحدة:

- قَط. كلهم سراب.. غبار.

بدتْ في صمتها مسكونة بحزنٍ مكين... فكرتُ أن أخفف عنها، فالتفتُ لآتيها بمطبوعة مُصورة لتسليها، لكنها في لحظة كانت قد اختفتْ.

لأيام أبحث عنها، وما أن هللتُ عندما اكتشفتُ صفحة لها على فيسبوك حتى فاجأتني واتخذت ضدي إجراء متعسفًا «بلوك» ثم أغلقتْ كل الصفحات، واختفت بنفس البساطة التي ظهرت بها، بل إنني عندما سألت عنها اتهمني أحدهم بالجنون، وهتف آخر:

- مجنون من يسأل عن مجنونة.

ندمتُ، لأني تسرعت، ربما كان الأفضل ألا أجرحها.. حسبتُ اختفاءها سيمنحني الشجاعة لكي أكتشف منظوري الخاص، لكني ظللت مشتتًا، بين الخوف منها وافتقادها وافتقاد الثقة بكل ما يخصها.

- لا أعرف كيف أضعتك يا صاحبة السمو. أسمعني أحدثها في نومي فتهمس بمرارة:

- ظلمتني.

تغلق الباب على حلمي وتمضي.

فاتتْ عدة شهور منذ اختفتْ، فقط بالأمس ذكروا أن امرأة لا تنتمي لعصرنا، تحيطها هالة مضيئة، ظهرتْ في «صلاح سالم»، تحرسها ثلاثة كلاب، ثم انتقلتْ إلى وسط البلد حيث كادت تختنق من الحر والزحام، فصاحت:

- أفسحوا لي يا أبنائي.. أنا سيدة العالمين.. أنا مريم العذراء.

فتحتُ باب الشقة، قادتني قدماي صوب المكتبة. هناك تذكرت لؤلؤتها، التقطتُ الكتاب وفتحته، فوجدتُ الكلمات في كل الصفحات قد امحتْ، واللؤلؤة لم يتبقَ منها سوى ذرات غبار.

حكاية لوحة

مـن بـين اللوحـات الفنيـة الكثـيرة التـي تفتننـي تبقـى للجوكنـدا مكانـة خاصـة لـديّ، إلا أن «العشـاء الأخـير» هـي التـي فيـما يبـدو ألهمتنـي مصـيري، فلـم يكـن قـط مـن قبيـل المصادفـة أن ألتقيهـا -مـا بـين شاشـات ومجـلات ورقيـة - سـبع مـرات في يـوم واحـد، هـو نفـس اليـوم الـذي فكـرتُ فيـه أن أقتلهـم؛ لم يكـن مـن قتلهـم بـد، في البدايـة أرسـلتُ لهـم الدعـوات لمشـاركتي مائـدة عشـائي، بـدأت السـهرة بدايـة رائعـة تصـدح فيهـا الموسـيقى بـين أرجـاء القـصر، وتسـيل الضحـكات مـن هنـا إلى هنـاك- عـلى الرغـم مـن كَـوني حدسـتُ تنبـؤ أحدهـم بأنـه سـيكون «العشـاء الأخـير» كـما في القصـة «الأصليـة» - وبعـد أن نفـد الطعـام قتلتهـم كلهـم رغـم حبـي لهـم، بمـا في ذلـك الرجـل الـذي حملنـي وأنـا طفلـة لأوقـدَ مصبـاح الغـاز، والمـرأة التـي أورثتنـي الولـع بالحبـكات المحفوظيـة بعدمـا أوقعتنـي في غوايـة الحكايـات، ثـم الأخـرى التـي علمتنـي قـراءة الطالـع في ثيـاب الحِـداد، التـي يحبـون وصفهـا بــ: سـيدة الهبـاء، وفي الجانـب الآخـر مـن اللوحـة يظهـر أبي، أمـي، والجـد الهَـرِم الـذي ينهـض بحراسـة الحقول وبِوَضع الإشـارات عـلى الطريق المُشـجر بالـسرو. أنـا التلميـذ الخائـن.. كل الذيـن لعقتهـم بصقتهـم، وزّعـتُ عليهـم «عيـشي ومِلحـي» ثـم غـدرتُ بهـم. مـن جهـة أخرى أنـا علامـة تعجـب في وجـوه الآخريـن الذيـن آذوني، الذيـن كرهتهم، أدعهـم يتعجبـون لأني لم أُشرفهـم بِسِـكيني ولا بِسُـمي، بـل قـصرتُ هـذا عـلى الذيـن أحببتهـم؛ تواطـأ ليونـاردو دافنـشي معـي، هـو

الـذي نجـح في جعْـلِ الحواريـين بسـطاء بشريـين، هـو الـذي جعلني أحـدق في صورهـم وأتسـاءل: لمَ لا يكـون أحدهـم امـرأة؟ ثـم أُصغـي لمـن يرفـع رايـات الشـك ويتسـاءل: هـل سـتنقلب الدنيـا إن كان «يوحنـا» هـو نفسـه «مريـم المجدليـة»؟ أكافئـه بفنجـان قهـوة محوجـة وسـيجار مخصـوص لأكـثر الأدمغـة انفلاتًـا.

ليونـاردو دافنـشي الـذي مـرّر عـشرات الرسـائل السرِّيـة عـبر أعمالـه الفنيـة، لم يطمـسْ ملامحـي، فقـط اختبـأ وراء الجـدار وأخـذ يراقـب تفاحـة نيوتـن وهـي تهبـط مـن عـلٍ، متظاهـرًا بأنـه لم يعلـم بقانـون الجاذبيـة، أمـا مـن حـاول أن يخبـئ نصـف وجهـه في نصـف وجهـي، وأن يـداري بعـورتي عورتـه فلـم أُشر لـه، كـما فعلـت البنـت الأخـرى، بإشـارة بذيئـة، فقـط أخبرتـه أني لـن أقتلـه لأني لم أحبـه، وسـأتركه مثـيرًا للشـفقة أو ربمـا للاشـمئزاز، وفي حركـة مفاجئـة قفـزتُ للأمـام فانفصـل نصفـي عـن نصفـه وسـال دمـي.

لـو كان دافنـشي لم يـزل حيًـا لحصـد نظـير لوحاتـه بلايـين الـدولارات، أمـا أبي - الـذي لم يكـن موهوبًـا مثلـه ولا محتـالاً مثـل مـن تاجـروا بموهبتـه، أبي الـذي أحببتـه، ربمـا، أكـثر مـما يجـب - فلقـد عانيـت كثـيرا حتـى سـكبتُ دمـه مـن تجاويـف عروقـي، ولم أعـثر عـلى مـا أمـلأ بـه مِخـلاتي سـوى الهـواء، ومع ذلـك فقـد انحنى ظهـري، تميـل قدمـي وأكاد أنكفـئ، مـرة ثـم أخـرى، ولا أنجـو إلا بحـركاتٍ بهلوانيـة مُختلـة.

ودعـتُ قتـلاي ونواياهـم الحسـنة، ثـم لوحـتُ مودعـةً طمأنينـة

الركـون إلى الضـوء الحنـون لمصبـاح الغـاز؛ لم يعـد بإمكاني الاسـتمرار في غـزْل الحبـكات المكـرورة أو الاغتبـاط بالركـض في عبـق الحقـول، كـما لـن أحقـق نبـوءة سـيدة الهبـاء؛ لم أفكـر في «الأب والابـن»، بـل في الـروح المتمـردة، في الحـب المغـدور والحبيـب على صليبـه منزوع التـاج والمجـد؛ ورُحـت في غيبوبتـي أجـرع كأسًـا «غـير مقدسـة» وراء أخـرى في «صِحـة» التجربـة، وفي صحـة الخـلاص مـن ملاحقتهم لي، ووسـط نظراتهـم الميتـة، المدهوشـة مـن إصراري، قمـتُ بخلـعِ الثـوب المهـترئ الـذي لم يعـد يخفـي مِنـي شـيئًا، ثـم ألقيـتُ بـه فـوق وجـوم وجوههـم، حتـى أضمـن عـدم عـودة أي منهـم، قبـل أن أدس السـم في الألـوان.

عُنوة

سيكون جيدًا لو تمنحني الساعة القادمة الفرصة لأعيد ترتيب أعضائي. ساعة ليست بالشيء الهين، فلطالما كانت كافية لإعداد طاجن من اللوبيا «أم عين سودا» بالصلصة الحمراء ومكعبات البتلو، وجبة غداء معتبرة. ستون دقيقة تكفي لفعل الكثير من الأشياء، فترتيب ألوان «الميك آب» فوق بشرة وجهي لا يحتاج، عادة، سوى بضع دقائق أبدو بعدها في غاية الحُسن، وأبعد ما يكون عن هذا الشحوب، وبالتالي فلا أتصور أن يستغرق مدُّ أناملي ومداعبة الكبد الكسول لكي ينشط أكثر من بضع دقائق أخرى، نفس الأمر بالنسبة للطبطبة على الأمعاء التي لا تكف عن النشاط والحركة، ولا عن إحراجي بـ«زغورتها» الفاضحة أمام كل من هب ودب، كما لن أنسى أن أمسح عن عيني دموعًا طالما سفحتها لأجل ما ومن لا يستحق. لن أنسى أيضا أن أرجرج أذني حتى أسقط كل ما انحشر داخلها من أوهام.

ربما لن ينجح هذا العلاج الذاتي مع القلب السقيم، ربما أحتاج لقلبٍ شابٍ غض، قلبٍ أبيض نظيف بدلاً من هذا المحتقن بالنيكوتين والانفعالات، وجراحة لن تستغرق سوى بضع دقائق، سوف أنجح إثرها، في الغالب، في تمديد عمري قليلاً حتى أبصق غضبي ونقمتي وقنوطي في وجه العالم، أو في مؤخرته، ما دام عمري كله لم يمنحني برهانًا على أن هناك من يستحق الحب، فأموت لأجله.. «راضية».

وعلى أي حال فلو أنني نجحت في تمديد عمري ليومٍ آخر، فسأقتنص ارتيابًا هائلاً حول الجيولوجيا وعلوم الفلك كي لا أصدق، بعبط وسذاجة، أن ما تنزلق أمامي الآن هي كرتنا الأرضية، فأمد سبَّابتي لكي أوقفها.

يومٌ آخر يلزمني لكي أنتف بقايا تِفل اليقين من رموش أعين فاجأها المشيب قبل الأوان وسَطا على سوادها، ولكي أرتدي جسدًا آخر أعتق فيه المتع التي حرموني من ارتشافها حتى رعشتها القصوى. سأقتنص نفَسًا آخر، ميلادًا آخر، قصيدة تزدري كل ما قيل من شعر.

سأشيد ازدراء آخر، معبدا آخر، يقينًا أنتزعه من عليائه، وألطخه بالوحل وألبسه «بيجامة كستور وشبشب زنوبة» حتى يلف البلد «كعب داير»، ويتيقن أنه لم يعرف من قبل أي شيء.

أما إذا عجزت عن كل هذا فسأمُد يدي بين طيات الكفن وألتقط حفنة بذور اللوبيا «أم عين سودا» التي خبأتها، مع القليل من الحبق والسمسم والحلبة والحنطة، ليكونوا في عوني على ميلادي الجديد.

هذا البِرام الفخّاري القديم بالذات

لا قَرابـة الـدم ولا عِـشرة العمـر ولا كَـون الحيـط في الحيـط، ولا كل الـكلام المُـزَوق الـذي يمكـن أن يقـال بهـذا الصـدد يجعلنـي أسـامحهم، أو يجعلنـي أصغـي لهـذه التـي أرسـلوها محاميـة عنهـم، هـذه التـي ترفـع حاجبيهـا وتجحـظ عينيهـا ولا تفهـم ولا تريـد أن تفهـم ولا أن تكـف عـن تسـفيه الأمـر:

-كل ده على برام قديم يا خالتي! ماعندك مواعين ياما!

نعـم؛ عنـدي الكثـير، لكـن هـذا الـبرام بالـذات «أحـاول أُفهِّمهـا»: الوحيـد الـذي أحـب أن آكل البامية منـه، فبإمـكان أي كان أن يطهـو حلـة باميـة «أنجـر بحالـه»، لكـن هـذا الـبرام الصغـير وحـده يمنحهـا مـن خـلال مسـام فخـاره الطعـم والنكهـة اللذيـن يلـذّان لي.

عندئـذٍ يكـون ردهـا هـو اقـتراح أن نذهـب معًـا إلى السـوق لنشـتري البديـل الـذي يعجبنـي مهـما يكـن سـعره «مـن جنيـه لألـف"

-يخـرب بيتـك بـت. أدعـو عليهـا في سري، ثـم أرفـع صـوتي بالرفـض:

-لاااا يا حبيبة عيني.

أشرح لهـا أن هـذا الـبرام مـن أيـام مـا «غَـزة» كانـت تبـع مـصر، وكان أخـي مجنـدًا هنـاك وأتانـا باثنـين: واحـد لي والآخـر لأختـي

«وفاء» رحمها الله، وفاء توأم روحي التي لم تعرف كيف تربي أولادها للأسف، (التي لو ما زالت حية لطبت ساكتة عندما ترى أولادها) فيأخذون البرام الفخاري من خالتهم «مليان» على عينه هُبر لحم و«رز» بالخلطة فيما تُزين وِشه طبقة «قشطة» بالصلاة على النبي تقول للقمر «قُوم» وأنا أقعد مطرحك، تعطيهم هذا مساهمة منها في واجب عزاء أبيهم «ألف رحمة ونور عليه» حتى يليق الأكل بالمعزين: رئيس مجلس الإدارة والمدير العام... إلخ من علية القوم الذين ما كانوا ليأكلوا من طبخ الجارات الأخريات «الملهوج وحياالله بس أداء واجب»، يأخذونه ويشكرونها ثم يتركون البرام الفارغ يضيع في الزحمة، بعدما حافظتُ عليه «من أيام غزة» حتى الآن، تبدو محاميتهم كأنها تصغي لي ثم يظهر أنها لم تفهم شيئًا:

- يا خالتي ده انتي ياما أهديتيهم بآلافات. هتقاطعيهم على بتاع مايسواش؟

أستدعي الصبر وأحاول أُفهمها مجددًا أن ما تقول عليه «مايسواش» هو عندي أغلى من الذهب والفضة، فيه رائحة الحبايب وأغلى الأيام، وكنت أرسله لأمهم بأحلى أكلة كل جُمعة وهي مريضة، لأني أعرف إهمالهم «عيالها» وحتى بعد وفاتها صرت أرسله لأبيهم بالأصناف التي يشتهيها، ولمَّا مرض وعجز عن أن يؤكّل نفسه صرت أؤكّله بيدي.. كل يوم.

أنتبه على عوجة فم «البت المحامية» وكأنني لم أقل شيئًا

البتـة! تمصمـص شـفتيها وتقـول:

-حطـي نفسـك مكانهـم يـا خالتـي. حتـة بـرام وضـاع أو اختفـى ومهـما عملـوا مـش هيعرفـوا يرجعـوه. عايزيـن يجيبولـك زيـه.. يجيبولـك أي حاجـة تعجبـك.. إنتـي الـلي رافضـة. طـب يعملـوا إيـه؟! يراضـوكي ازاي؟!

أنظـر طويـلا لكفيهـا المشـوحين فتطقطـق شـفتاي وتصعـد المـرارة إلى فمـي، وأهمـس:

-حتة برام وضيعوه!

-ياخالتـي إذا كان البنـي آدم بـيروح. أبوهـم نفسـه راح. حتـة بـرام بقـى مـش هـيروح؟!

-صحيـح إذا كانـوا ماحافظـوش عـلى أبوهـم ذات نفسـه! أبوهـم الـلي رباهـم وشـقي عليهـم العمـر كلـه! إذا كانـوا سـابوه يتلطـم في المستشـفيات التعبانـة ولا عـلى بالهـم. كل واحـد مشـغول بنفسـه وخـلاص. إذا كانـوا مارضيـوش يخلـوني أبيـت جنبـه أراعيـه وأوَنسـه في المستشـفى، وفي الآخـر هـان عليهـم يسـيبوه يمـوت وحـداني يـا حبـة عينـي. الـلي عملـوا كـده.. هيحافظـوا عـلى حتـة بـرام؟!

تنظـر «البـت» متعجبـة لدموعـي التـي فـرت دون إرادة منـي ثـم تشـهق:

-آاااه. كده أنا فهمتك يا خالتي.

-ودي مالها عملتْ كده ليه؟ وواخدة في وشها وماشية كده!

خيبـة لا تـروح تقـول حاجـة خايبـة «زي الـلي جابوهـا»، سـاعتها هيصدقـوا مقصـوف الرقبـة الـواد التمرجـي الكـذاب الـلي قاللهم اني كنـت بـأكِّل أبوهـم في بُقـه وهـو بيضحـك ويقرصنـي في... هـه! قال يقرصنـي قـال! هـو علشـان يعنـي مـا قلبـي اتوجـع زيـادة شـوية! كل مـن هـب ودب هيقـول حاجـة، عشـان مـا قلبـي يعنـي.. أبـدًا لا سـمح اللـه، مـش قلبـي... دي المصيبـة كلهـا في الـبرام ده.

هذا البرام القديم بالذات.

السِن الذهبية

لم تعرف من منهما «جسدها أم سلك التليفون» الذي التف حول الآخر، فبعدما أنهت المكالمة اضطرت أن تدور حول نفسها ثلاث دورات حتى تتحرر. بهذه «الاشتغالة» عبرت الصدمة التي أصابتها بها المكالمة وكادت تدفع بالدم من وجهها وعينيها، المكالمة التي حملتْ خبر نقل الخالة للمستشفى.

أولاد خالتها اختاروها لأنها بلا وظيفة، بلا أملاك، بلا زوج..

-لاعيِّل ولا تيِّل.

قالوا بمصمصة شفاههم:

-«الغلبانة شادية» أولى من الغريبة.

صارت «جليسة» للخالة:

-الخالة والدة. وكله بثوابه.

مسحت الفراش المتهدل فوق بدن آخذ بالتلاشي، البدن الكسيح بعينيها ولاحظت الأنفاس المكروشة وفتحتي الأنف المنتفختين توسلا للهواء وهمستْ ملتاعة:

-شهر شهرين بالكتير. عيني يا خالتي.

الشهران صارا عشرة أعوام تحسنت خلالها الخالة بجهد «الغلبانة شادية»: تُنظف وتُحمم، وتُطهر الجروح وقُرح الفراش

وتَنـزع الأنسـجة الميتـة. تبرطـم شـادية:

-عـشر سـنوات مناهـدة ومهابـدة. شـد وجـذب. غَيـظ وشِـدة ثـم شـفقة وعطـف... تهدهـد خطـوط وجههـا المرهـق في المـرآة.

-اصبري يا بت. الخالة والدة. «تهمس لنفسها»

عـشر سـنوات مسروقـة مـن عمـر «الغلبانـة شـادية» تتحمـل وتتحمـل.. ثـم بانفعـال:

-فاض بي. لو لم تمت الآن لكنت... قتلتها.

شـهقت عندمـا أخبروهـا تليفونيـا باحتضارهـا، صرخـت صرخـة عميقـة مكتومـة نـشرت الألم بعظامهـا، ثـم انشـغلت في تحريـر نفسـها مـن سـلك التليفـون، و... هـذا كل شيء.

السـاعات المنقضيـة بـين المكالمـة وبـين وصول شـادية للمستشـفى صـارت موضعًـا لتسـاؤلهم، وغطـت عـلى اهتمامهـم بـأي شيء آخر:

حسبوها ستهرع كي لا تُفوِّت فرصة توديع خالتها..

-الـلي خيرهـا عليـكي.. علينـا كلنـا. تهمـس ابنـة الخالـة «مـن تحـت لتحـت».

نعـم، أسرعـتْ نحـو محطـة الباصـات، ولسـوء الحـظ كان الزحـام بشـعًا.. لكـن هـذا لـن يـبرر أن تقطعـي الشـارع العمومـي يـا سـت شـادية، وتتعمقـي في تشـعبات الحـي حتـى تصـلي إلى «المـول»

الفخيـم بالجانـب الآخـر مـن المدينـة!

لا شيء تبحثـين عنـه، فقـط «فُرجـة» عـلى الفتاريـن، بعـد عـشر سـنوات: جليسـة مـع الخالـة، تتحمـل «غلاسـة» نهارهـا وسـوداوية مزاجهـا وأرق ليلهـا وأزماتـه؛ لا إجـازة، لا نزهـة ربيعيـة، تجـد نفسـها فجـأة في دوّامـة.. مئـات الأنـواع مـن السِـلع ذات الألـوان والأحجـام والأشـكال المختلفـة، عيناهـا تعجـزان عـن الملاحقـة.. حقائـب نسـائية، فسـاتين، بلـوزات حـمّالات صـدر وألبسـة داخليـة رهيبـة، أحذيـة، موديـلات سـاحرة، وجـوارب، أدوات تجميـل، عطـور، أدوات زينـة وأكسسـوارات، أقفـاص عصافـير، أقفـاص فيهـا حيوانـات أليفـة: يـا عينـي! تهمـس. ثـم أدوات رياضيـة، حواسـيب، موبايـلات. لم تتوقـف لاشـتراء أي شيء، فقـط كانـت مأخـوذة، مجذوبـة لهـذا ولـذاك، وبؤبـؤا عينيهـا ضائعـان، متاهـة لم تخـرج منهـا إلا بجهـد كبـير، لا يقـل عـن الجهـد الـذي كانـت تبذلـه يوميًـا في خدمـة الخالـة نظـير مبلـغ بسـيط لـو تقاضتـه غريبـة لثـارت مـن أول شـهر، لكنـك تُحرجـين مـن مطالبـة أبنائهـا وهـم ضنـوا عليـكِ. والخالـة التـي دأبـت عـلى تجاهـل تعبـك، تتكـرم -في لحظـة صفـو نـادرة- بالقـول: المطبـخ لـكِ. أنـا وصيـت الـولاد.

غرفـة النـوم لابنتهـا والصالـون والسُـفرة وكل ذي قيمـة لأولادهـا ولـكِ يـا «غلبانـة» المطبـخ «بحالـه ومحتالـه» ولـن تعـترضي عـلى وصـف الحاجّـة للنمليـة بأنهـا مصنوعـة مـن خشـب الـزان، ووصفها للبوتاجـاز بأنـه فخـر المصانـع الحربيـة، وللملاعـق والشـوك بأنهـا صناعـة تشـيكية: وارد غـزة... زمـاان.

ربما أمكن للخالة أن تستشرف دنو أجَلها، ولم يمكنها إنكار ثقل أرجل أبنائها الذين ما عادوا يزورونها مكتفين بالاطمئنان تليفونيًا، لم يمكنها أيضا تجاهل أن شادية رغم طول لسانها وقلة «روايتها» التي تفوق الوصف إذ توصي عزرائيل على خالتها:

- أنا مش عارفة إنت ليه بتنسى تاخد المَرَة السَوّ دي؟!

رغم كل ذلك، لم يمكنها تجاهل أن شادية في الحقيقة رهينة لديها، تفكر أيضا بأن المطبخ «رغم إصرارها على أن النملية زان.. وأن البوتاجاز... إلخ» لن ينفع أولادها في شيء، ولهذا همست في لحظة الصفو تلك:

- المطبخ لكِ. و... السِنّة الذهب كمان.

ويبدو أن المقطع الأخير من العبارة كان مجرد زلّة لسان من الحاجّة، لأنها لم تكرره مرة أخرى، أما لماذا لم تتمسك شادية به؟ لماذا لم تكرر على الحاجّة عبارتها «وعدها» حتى تثبِّتها دون تهرُّب ولا تراجع؟ لماذا لم تُلحّ؟ لأنها في الغالب تكره هذه «السِن»، نعم؛ ليس معقولا أن تكره شادية الذهب وما يعنيه كثروة، حتى إنها عند صفع العبارة لأذنها همست لنفسها:

- السِنّة الدهب! يا بختك يابت ياشادية! ده انتي دعالك وَلِي.

لكنها سرعان ما تذكرت هذه السن التي هي في حقيقتها

«نـاب مدبـب» يـبرز ويطـول ويتـدلى مـن حنـك الخالـة، مهـددا، كلـما غضبـتْ، ولهـذا ردتْ شـادية:

- ربنـا يطـوِل في عمـرك يـا خالتـي. ماتفكريـش في الـكلام ده. وأخـذتْ تتسـاءل في نفسـها:

- لمـاذا يضـع النـاس ذهبًـا في أسـنانهم؟ لمـاذا تمنـح الخالـة الفرصـة للجشـع ليلعـب بـرؤوس أبنائهـا؟ أمـا تخـشى أن يحطمـوا رأسـها ليأخـذوا السـن؟!

تتنهـد وهـي تـرى أعبـاء الخالـة تثقـل والفـترة تطـول، ثـم «عملتهـا» فجـأة؛ وحـاصر سـلك التليفـون الغلبانـة شـادية، ثـم أضاعتهـا دوامـة «المـول» اللانهائيـة، فلـم تجـد في رأسـها سـوى فـراغ وعـين زائغـة، لا تعـرف بـمَ تـبرر تأخرهـا؟ بـمَ؟

ألهـذا احتالـوا عليهـا؟ ادعـوا أن السِـن الذهبيـة راحـت مـع مـاء «الغُسـل»، واكتفـوا بالمطبـخ.

في البدايـة انهـارت النمليـة.. «الـزان»، -الخشـب مِسـوّس. قـال النجَّـار.

- إشـمعنى السـوس ماظهـرش غـير بعـد مـا ماتـت! إياكـشي كان خايـف منهـا ولّا خايـف منهـا!

ظنتـه محتـالاً يبتغـي أخـذ النمليـة «بَلّـوشي: بـلا شيء»، أمـا الأطبـاق التـي أخـذت تتكـسر مـن مجـرد اللمـس حتـى وهـي في

مكانها فلم يمكنها إلا الرضوخ لِكَون الأشياء تحزن على صاحبها وتحرِن على غيره، لكن تطوُر الأمر بشكل خطِر هو ما جعلها تفكر بالفخ الذي نصبته لها الخالة، فشُعلة البوتاجاز التي توهجت في وجهها دون سبب كانت تطورًا نوعيًا، ثم السكين التي تصر على جرحها قبل حتى أن تمسكها، وباب المطبخ الذي انغلق بغلٍ على إصبعها الصغير وشرخ مِفصَلته.

هل رغبت في أذيتي؟

من منهما عذّبت الأخرى أكثر؟ أذلّت الأخرى أكثر؟ كم من المحبة تبقى؟

سرٌ يَصعب فهمه حتى لو باحثْ به، بِركة غائرة من قذارة المرض والعجز والسأم غرقتا فيها معًا، يعجزا عن احتمالها، يعجزا عن الخلاص منها، لكن أيضا ثمة لحظات دافئة، لفتات نادرة.. تلمح أمها بالفعل في وجه الخالة، أو تكتشف نبرة في صوتها نادرا ما تبين... نادرًا...

ما أن تخلصت من المطبخ حتى أتاها صوت ابنة الخالة:

-الحمدلله لقينا السِنة. لقيناها تحت الكِلِيم.

راحت الكلمات تستولي عليها، كيف انتقلت السِن من يد لأخرى ثم ها هي ستعود لها، لصاحبتها الأصيلة، فالحق لا يضيع. تنهدت بارتياح، فيما برقتْ في عينيها صورة المول- بأنفاس رواده وأجسادهم، واختلاط رائحة العرق والغبار وبقايا

العطـور بمـذاق الحيـاة- والمُتـع والأشـياء التـي لا تعـرف إن كانـت سـتحبها أم سـتكرهها أم، لكنهـا تريـد أولا أن تعرفهـا، فـلا بـد أن يكـون معهـا بعـض المـال، أن... يترّجَّـع الصـوت ويشـتت أفكارهـا..

- لقيناها تحت الكليم؟ تفكر..

«ولكـن؛ مـن أيـن لبناتِـك كل هـذا النُبـل لـكي يُعِـدن لي شـيئًا يسـاوي الكثـير؟! إلا إذا كانـت السِـن قـد أرتهـم الويـل ونجـوم الليل فـأردن التخلـص منهـا، تـرى مـاذا فعلـت بهـم سِـنك يـا خالتـي؟».

حائط غاندي

جسد «كلوديا كاردينالي» وعقل «أينشتين» وقلب «المهاتما غاندي» كانوا أمنيات حياتها عندما استقبلت دورة هرموناتها الشهرية الأولى؛ ضيقها بحَب الشباب الذي غزا وجهها وشوّهه تبدد وهي تراقب هامتها تطول ما يكفي لتعليق الصور على الحائط؛ بعد أكثر من عشر سنوات بدأت تسخر من مشاجرات هذه الصور وتنافسها بداخلها، مدركة بعد بعض الوقت نهم أمنياتها وهشاشة قدراتها فيما تمرر يدها فوق بطنها المنتفخ وتتنهد، مضطرة للاعتذار لكلوديا كاردينالي قبل أن تنزع صورتها لتضع مكانها صورة وليدها الغض، إذ عجز جسدها الذي أوهنه الحَبل والرضاعة عن دق مسمار جديد بالحائط الصلب، كما عن الرقص أو التحكم بالنتوءات التي تنبعج من جسدها فجأة ثم تبقى للأبد؛ قبيل بلوغها الأربعين تنازلت عن الحلم بعقل أينشتاين بعد رسوبها في امتحان الدكتوراه للمرة السادسة، ولم تُعِد صورته إلى الحائط بعد نجاحها في المرة السابعة، بل استكفت بأنها ما زالت قادرة على استيعاب العلم قدر ما يتطلب العمل الروتيني اليومي، كما على قيادة سيارتها بتوازن مُرضٍ، وكانت تفتح باب هذه السيارة عندما أحست بيدٍ تسحب حقيبتها المعلقة على كتفها، التفتت فكان الولد، وبيده الحقيبة، قد جرى ليعبر الشارع، وقبل أن تتحرك أو حتى تصرخ رأت سيارة مسرعة تصدمه ثم تجري وتختفي؛ أسرعت خطواتها حتى توقفت لتجد نفسها

أمـام صبـي لا يتجـاوز عمـره السـبعة أعـوام، وعـلى الرغـم مـن غضبهـا العـارم فقـد أحسـت بنظرتهـا حائـرة - بـين حقيبتهـا التـي يحتضنهـا الصبـي بـذراع مضمومـة، بـإصرار، إلى صـدره، وبـين دمـه الـذي يسـيل فـوق الأسـفلت- وبسـاقيها تتهاويـان، تجمـدت لحظـة ثـم حسـمت أمرهـا وتحملـت ألم ركبتيهـا وانحنـت، حملـتْ، بصعوبـة، الصبـي وسـارت نحـو سـيارتها، وضعتـه عـلى الكـرسي فيـما ذراعـه لا تـزال مثنيـة إلى صـدره عـدا أن الحقيبـة لم تكـن موجـودة، تحـيرت لحظـة: هـل تنـزل لتبحـث عنهـا؟ هـل تـدور بالسـيارة؟ لكـن رؤيتهـا لارتجافـه وشـحوبه جعلتهـا تحسـم أمرهـا، أدارت السـيارة باتجـاه المستشـفى ثـم... ابتسـمت لغانـدي.

سويتر جلد بُني

طقس لطيف يغري بنزهة صباحية، إلا أن الشوارع لم تستعِد هدوءها بعد، صخب وإزعاج، وقسوة في النظرات وحتى الكلمات، تتطور في الغالب إلى مشاجرات، بين المارة والباعة المتجولين، بين سائقي العربات والميكروباصات وبين الراكبين، جلبة وعنف يتزايد يوما بعد يوم. تُفكر بهذا وهي تغلق النافذة، ثم تهجع إلى الكنبة المريحة أمام شاشة التليفزيون مع سلة الخضراوات تطل منها حبات البامية الخضراء. تترك أفلام الكرتون وبرامج الطهي، تضغط الزر لتهرب من نشرات الأخبار، ضغطة أخرى تجد المنصة أمامها. الهيبة لا ينال منها كَونها مجرد صورة على الشاشة، فلقد انزلقت من يدها الحبات وكادت السكين تجرح يدها وهي تصغي للصوت بانتباهٍ، يؤججه إيقاع المطرقة تضرب بها يد القاضي سطح المنصة. ينتهي من كلمته الخاطفة عن الظلم والعدوان وقتل النفس التي حرّم الله ثم يهتف بعنوان قضية «قسم شرطة شرق...»، ويطلب العرض. يظهر عامل ووراءه آخر ينحنيان ويضعان عن كاهلهما صناديق ضخمة يتضح أنها مليئة بأشياء متباينة النوع والحجم جمعها القاضي في كلمة واحدة «أحراز». قطع أسلحة، ذخيرة، خرطوش، فردة حذاء، زجاجات كبيرة، نظارات طبية مُهشمة، خوذات، مُدي، مقاليع، أوراق، هراوات، أجهزة محاليل وريدية... ثم سويتر جلد بني.

يرتفع صوت: عدد ٢ مسدس.. مطواة.. إلى أن يصل: سويتر جلد بُني مثقوب بأكثر من ٢٠ ثقبًا لطلقات نارية.

-هه! بُني!

تكاد عيناها تبتلعان الشاشة، تترك صوت القاضي يتلو تقرير الطب الشرعي.

هرعت إلى دولاب متوسط الحجم تفتح ضلفته وتفرز بيدٍ مرتعشة كل الشمَّاعات، عابرة كل الثياب المُعلَّقة ثم تتركها وتسرع إلى التقاط موبايلها.

*****

ضحكات الشباب لا ينال منها زحام الشارع، أو غبارٌ علق فجأة بالجو؛ يمد يده ويلتقط كوب الشاي من على إفريز شباك الدور الأرضي ببيت قديم احتموا بجداره، وقبل أن يأخذ أول رشفة يرن موبايله:

- أيوه.

-....

- إيه؟

-...

- مالك يعني؟

...-

- طب يا ماما...

.....-

- يا ماما باقول لك عند المغسلة.

...-

- أيوة السويتر الجلد البني. خلاص؟!

وبينما خفض صوته ليهمس لأمه بكلمات لم يسمعها رفيقه، يرفع هذا الأخير يده مشيرًا لشاب آت من بعيد بهتاف ضاحك، إلا أن هذا الشاب الآتي لم يضحك لأنه كان يحادث أحدًا في الموبايل، وعندما اقترب سمعه يؤكد:

- يا ستي في الشنطة اللي تحت السرير. مش قصدك ع السويتر الجلد؟ الجلد البني؟

يحدثها ويلاحظ دهشة عيني صديقيه لدى ذكر السويتر الجلد البني. ينظر إلى اليمين فيلمح عابرًا مرتديًا نفس السويتر، ينظر يسارا فلا يتسنى له سوى طرف السويتر. ينظر إلى أسفل.. إلى أعلى..

رسمٌ.. بقلم الرصاص

بـدتْ مرتبكـة، تُحـرِك، بكـثرة، كفيهـا وبؤبـؤي عينيهـا. ذكـرتْ وهـي تفتـح أحـد الأدراج أنـه فتـى شـديد التميـز. كنـتُ أصغـي إليها وأتأمـلُ محتويـات المكتـب مدهوشـة مـن عـدم وجـود شيء مميـز، لا شيء يـشي بامتلاكـه لهوايـةٍ حاذقـة، أو لمهـارةٍ خاصـة، كتبـه المدرسـية مكدسـة بإهـمال، أقلامـه مـن النـوع الشـائع الـذي يسـتعمله أغلـب التلاميـذ، سلسـلة مفاتيحـه المعدنيـة يزينهـا تصميـم مألـوف للسـندباد الرحَّـال.

لمعـتْ عيناهـا بزهـو وقالـت إنـه حفـظ سـتة أجـزاء مـن القـرآن قبـل أن يدخـل المدرسـة، كـما أنـه سـبق أقرانـه في تعلُّـم حـروف الهجـاء، منـذ صغـره كان يحـب أن يتعطـر وعندمـا بلـغ عامـه الثـاني عـشر بـدأ يـسرح شـعره إلى الـوراء.

أخبرتنـا، بلمعـانٍ أعمـق بعينيهـا، أنـه أفضـل هـدافٍ بفريـق الكـرة بالمدرسـة. حرّكـتْ، وهـي تحـكي، قبضتها بحماسـة المشـجعين، فتبادلنـا أنـا وزميـلي النظـرات.. وعندمـا التفـتُ نحوهـا كانـت قبضتهـا قـد ارتخـتْ وتهدلـتْ بجانبهـا وكان لمعـان عينيهـا قـد انطفـأ.

في الغرفـة الصغـيرة رأيـت حذائـه الريـاضي مركـون بجـوار البـاب ومغطـى بطبقـة خفيفـة مـن الغبـار، في الجهـة المقابلـة غطّـت سريـره ملاءة خـضراء مـا زالـت مكرمشـة في موضـع نومـه مخفيـة بعـض رؤوس الإوز البيضـاء المطبوعـة عـلى القـماش، فيـما احتلـتْ

صـور رياضيـين شـهيرين الحائـط المتاخـم لسريـره، بينـما انفـرد الجـدار المقابـل بصورتـه المدرسـية بالقميـص الأبيـض وربطـة العنـق الرماديـة.

فـوق الطاولـة، التـي كان يسـتذكر عليهـا دروسـه رأيـتُ رسـمًا، بقلـم الرصـاص، لم يكتمـل بعـد، لطائـر يحلـق في الأعـالي.

ذكـرت وهـي تجـذب ريمـوت التليفزيـون أنـه اقـترب مـن طـول أبيـه «هامتـه»، وحكـتْ عـن مراقبتـه لمـا يجـري آمـلا أن يُرفـع حظـر التجـوال. ذكـرتْ وهـي تمصمـص شـفتيها أن انقطـاع التيـار الكهربـائي كان يحرمـه مـن متابعـة المسلسـلات التـي يحبهـا، ومـن التسـكع عـلى الكورنيـش مـع رفاقـه، أخـذت ابتسـامتها في الاتسـاع تدريجيًـا وهـي تحـكي كيـف أقسـم بأغلـظ الأيمـان أن يمدهـم عـلى أقدامهـم بعصـا أبيـه إذا مـا حاولـوا اقتحـام الحـارة. وفيـما كنـا نضحـك أخرجـت مـن جيبهـا عـود صغـير مـن البـوص، قالـت إنـه كان يحـب أن يصفِّـر فيـه، قالـت إنـه سـقط مـن جيـب السـويتر الـذي... ثـم توقفـت فتوقـف الضحـك.

فجأة، بدا لي أنني لمحته، كان هو بالفعل، أو صورته...

- هل تخيلتْ يوما أن تتناقل صورة ولدها الشاشات؟

تسـاءلتُ وأنـا أطالـع الوجـوم بعينيهـا. ضغطـت الـزر مـرة ثـم أخـرى، في الأولى رأيـتُ الملامـح الأسـطورية لبطـل، وفي الأخـرى ظهـرتْ ملامـح مجـرم، وكلتاهـما كانـت مختلفـة عـن صورتـه

الحقيقيـة بالقميـص الأبيـض وربطـة العنـق الرماديـة؛ لشـد ما بدت المسـافة.. شاسـعة بـين اللقطتـين كعالمـين متباعديـن، أمـا المسـافة بـين الحيـاة والمـوت فلـم تكـن سـوى تلـك المليمـترات القليلـة بـين الزنـاد وإصبـع القنـاص.

رسالة علياء

يضغـط زِر «إخفـاء» بالكمبيوتـر ثـم ينهـض؛ تتحـرك قدمـاه الحافيتـان فـوق الأرض المترعـة ببقايـا الطعـام وفـوارغ علـب العصير ومـزق الأوراق، يرتـدي المعطـف الثقيـل لحمايـة جسـده، ويدخـل كفيـه في القفـاز، ثـم يضـع الخـوذة فـوق رأسـه، وأخـيرا يـأتي دور الحـذاء الطويـل، تمامًـا كـما في الإعـلان التجـاري عـن أدوات قائـد الدراجـة الهوائيـة لتحـدي الشـتاء. يـضرب الأرض بحذائيـه جـذلاً.

***

- لا أحـد يعـرف متـى قـرر الإنسـان أن يكـف عـن المـشي حافيًـا؟ أو إن كان قـد اسـتخدم الأعشـاب أولا أم قِطَعًـا مسـطحة مـن الخشـب يشـدها سـيور مـن الجلـد ليحمـي قدميـه في أثنـاء سـيره بـين الصخـور؟ ربمـا لم تكـن هـذه الصنـادل كافيـة لحمايـة القدمـين، ولذلـك أضـاف إليهـا مـواد أخـرى تطـورت تدريجيًـا إلى أحذيـة، وباكـرًا اسـتخدم المصريـون لبَّـادات مـن الجلـود أو ورق الـبردي يشـدونها إلى القـدم بواسـطة رباطـين، وتقـدم الرومـان خطـوة أخـرى وصنعـوا نوعًـا مـن الأحذيـة بشـكل أكيـاس محشـوة بالعشـب يربطونهـا حـول القدمـين، أمـا أحذيتنـا الحديثـة فـإن بداياتهـا تعـود إلى رحـلات الحـج الطويلـة التـي تطلَّبـت صنـع أحذيـة تـدوم طويـلاً، مـع أن الحيـوات نفسـها سرعـان مـا كانـت تقصفهـا الحـروب.

تستمع «علياء» لمُدرِّس التاريخ حتى لو لم تفهم كل ما يقوله، فقط تلف شريط ضفيرتها الأبيض حول إصبعها ثم تجذبه أمام أنفها لتداري تثاؤبها، تبتسم له وهو يسترسل باهتمام:

-مع مرور الوقت، ظهرت وِرَش لتصنيع الأحذية الجلدية؛ وبشكلٍ عام فالأحذية صارت، على مَرِّ العصور، رمزًا للتحضر، مُسدِلةً الستار على مشهد الحفاة البدائيين إلى الأبد.. أو هكذا كان يُفترَض، إضافة إلى أن تقلبات الموضة الخاصة بالأحذية صارت عنوانًا مميزًا لكل عصر، وصار الحذاء صناعة تفتح بيوت آلاف مؤلفة من العمال وتصنع ملياريرات وتُلهب قُوى التنافس «الشريف وغير الشريف» بينها، حول الخام والموديل والسعر وفرص التسويق؛ وصولاً إلى تحقيق ثروات من مزادات على أحذية كانت تنتعلها الأميرات والخليلات ثم نجمات السينما فيما بعد، أحذية انطبعت فوقها آثار شفاه العاشقين، وأحيانا ذكرياتهم أو دموعهم أو... دماؤهم.

يُكمل عم «بخيت» الصرماتي القصة:

- هناك حذاء الجلد الطبيعي للميسورين، والصناعي: للبسطاء، الذين أكثر ما يتحسرون عليه هو «الفردة» السليمة بعد اهتراء الأخرى، ففي حال تبلى الاثنتان معا يكون أهون.

ولكن على أية حال، تفكر علياء، فقد انتبه مؤسسو صفحة «أفكار منزلية» فحولوا الفردة السليمة إلى بيت صغير للزهور بوضع أصص صغيرة داخلها وتعليقها على مداخل البيوت، أو

الفرنـدات، فـردة واحـدة أيضـا هـي التـي قـادت الأمـير الولهـان إلى «سـندريلا» الهاربـة، عمليـة مـن نوعيـة: قـص الأثـر بمعنـى مـا؛ تذكَّـرت «عليـاء» الحدوتـة وهـي تغـرس النبتـة في الإصيـص الصغـير ثـم تدخلـه بفـردة حذائهـا اليـسرى - بعـد أن تمزقـت اليمنـى، هنـاك في المدرسـة عندمـا جذبهـا «الـواد كريـم» الشـقي، بقـوة مـن يدهـا فتسـبب في وقوعهـا عـلى الأرض وتمـزُّق الفـردة اليمنـى- ثـم تركـض جـذلاً لتُثَبِّتهـا عـلى إفريـز الشُـبّاك قبـل أن يصـل «بـاص» المدرسـة.

تحـب عليـاء، كـما أتخيلهـا، أن تتفـرج عـلى نفسـها في المـرآة وهـي تلتهـم المكرونـة الإسـباجيتي دون أن تسـمح لقطـرة واحـدة مـن صلصتهـا أن تلـوث ثيابهـا أو حتـى ذقنهـا، تحـب أيضـا أن تسـتمع لجدتهـا تبسـمل وتحوقـل قبـل أن تحـكي حكايـة حـذاء النبـي الـذي حملتـه طائـرة الأمانـات «المقدسـة» مـع أشـياء النبـي البسـيطة الأخـرى «كنـوز الحجـرة النبويـة الشريفـة: الصنـدل والعِمـة وعـدد مـن المصاحـف والشـمعدانات و... إلـخ» تحـت حراسـة مشـدّدّة مـن المدينـة المنـورة إلى الخزانـة السـلطانية في قـصر «تـوب قـابي» في إسـتانبول، في ذروة أحـداث الحـرب العالميـة الأولى؛ وهـو حـذاء آخـر، تخبرهـا جدتهـا بنـبرة مهتـزة، غـير ذلـك الـذي سُرِق مـن النبي ومـا زالـت الآراء مختلفـة: إن كان النبـي قـد دعـا، بالفعـل، للسـارق «اللهـم أن كان محتاجًـا فبـارك لـه في مـا أخـذ»؟ أم لم يفعـل؟ تمسـح الجـدة عينهـا ثـم تتصَعَّـب وترفـع يدهـا بالدعـاء عـلى مـن سرق حـذاء زوجهـا «جـد عليـاء».

- سرقه من على باب الجامع. الله يحرقه.

تكركِـع عليـاء مـن تقلبـات جدتهـا؛ وتفـر الدمعـة مـن عينهـا عندمـا يصدمهـا تشـقق واسـوداد قدمـي صبـي المكوجـي الحافيتين، سـتُدهَش لأن المكوجـي يرفـض أن يشـتري لـه حـذاء يحمـي قدميـه، وسـتتذكر درس التاريـخ وتتسـاءل في نفسـها: هـل كل الحفـاة بدائيـون؟ تتسـاءل عـن العكـس أيضًـا، ثـم تنحنـي فـوق حصالتِهـا وتحـصي مـا معهـا فتتنهـد عندمـا تجـده لا يكفـي؛ وسـتتأمل حـذاء العقيـد عندمـا تتـوالى الصـور عـلى شاشـة العـرض بسرعـة فائقـة ويذهلهـا الإصرار عـلى الوصـول إلى هـذا الحـذاء بالـذات، فالشـعب الليبـي الـذي قـام بثـورة عارمـة عـلى الديكتاتوريـة لم يكتـفِ بالتنكيـل بالرجـل بـل أصر عـلى الاحتفـاظ بحذائـه - الـذي طالمـا احتلـت صورتـه شاشـات القنوات الرسـمية حـين كان الرجـل يغضب مـن برنامـج مـا - كدليـل عـلى طـي تلـك الصفحـة إلى الأبـد، وربمـا دُهِشـتْ أكـثر مـن مَيْـل «جـورج بـوش الابـن» المفاجئ الـذي اتضح أنـه كان محاولـة لتفـادي فـردة حـذاء «منتظـر الزيـدي» الصحفـي العراقـي، الـذي اختـار هـذه الطريقـة للتعبـير عـن سـخطه عـلى الإدارة الأمريكيـة ومواقفهـا مـن عراقـه. ربمـا تسـتوقفها كذلـك صـورة رواد الفضـاء بثيابهـم المُبَجَّلـة وأحذيتهـم الطويلـة الغريبـة التـي تطـير بهـم أمتـارًا بسـبب غيـاب الجاذبيـة الأرضيـة فـوق سـطح القمـر. لكـن يصعـب التكهـن إن كانـت قـد رأت الإعـلان التجـاري لهـذه الدراجـة الهوائيـة المُدهشـة مـن قبـل أم لا؟

***

الدراجة الهوائية تشبه تلك التي قادها «كلينت إيستوود» في فيلم "Coogan's Bluff"، تسابق -في مشوارها القصير - السيارات فتسبقها، وتصدم حائط غاندي ويدخلها الهواء المُنعش من كل الجهات، فيرتفع هرمون الأدرينالين لدى سائقها الشاب محققًا نوعًا من النشوة، لن تنسيه أن يُحكم ضم أطراف لثامه التي طيّرها الهواء.

عندما وصل الباص كان الباب الخلفي لسيارة الإسعاف مفتوحًا لاستقبال المحفة التي كانت الملاءة فوقها تغطي جسدًا صغيرًا، فيما راح يتأملها شخص «بلباس ميري» جالس على حافة الرصيف، يتنفس بصعوبة، لم يُصدق بعد أنه كان مستهدفًا وأنه نجا، فقط يتذكر «علياء» ابنة جيرانه الصغيرة التي طالما تبرَّم من صخبها ودبدبتها على السُلم، لم يسمعها وراءه هذه المرة ولم يتصور أن مريولها المدرسي الصغير سيتلقى كل الطلقات التي كانت موجهة إليه عندما رأى فوهة الرشّاش يصوبها نحوه المُلثم سائق الدراجة الهوائية، فبرك على الأرض.

الدماء التي غطت الأرض عافتها الأعين الصغيرة المُتطلعة من شباك الباص المدرسي، كما لم يفهم بعض الصغار دور المحفَّة، وبعضهم الآخر كان ما زال ينتظر نزول علياء، فيما ارتقى «الواد كريم» الشقي ببصره، حتى استوقفته النبتة الصغيرة تطل من قلب فردة الحذاء.

حرير منزلي

شعر ماما أسود ليلي، طويل وناعم كالحرير، كان يمشي بجوارها عندما كانت تمشي، الآن صار يرقد على السرير بجوارها، وكأنه يعطي درسًا في الوفاء، لكنه فجأة أخذ يتركها ويتساقط، فأحزن هذا ماما، فَرُحنا أنا و«فوفا» نواسيها ونهدهدها فيما ظل هو ينفلت من فروة رأسها... شعرة تهبط في كوب الماء، أخرى تختبئ في طيات العجين.. المدهش أن شعرة لم ألحظها في الأكل «المرة الوحيدة التي كان الأكل فيها خاليا من الشعر، أو هكذا بدا لي» وجدتها في برازي، شعرة أخرى جعلتني أحس بحكة، مددت يدي فاكتشفتها عالقة، نصفها بالخارج ونصفها بداخل أمعائي السفلية، اضطررت لجذبها وفي الحال تأكدت من انتمائها لشعر أمي «سوداء، ناعمة، وطويلة».

شعر ماما يتساقط، والأسوأ أن الشعيرات المتساقطة تتلاصق وتتكتل وتجعلنا ننزلق على البلاط ونحنق عليها، وفي إحدى المرات سدّت الكُتل حوض الاستحمام وفي مرة أخرى تسببت في انسداد ثم في طَفح مجاري الشارع، في هذه اللحظة تلقينا نظرات الجيران المشمئزة الغاضبة والمتوعِّدة، فأدركنا مأساوية وضعنا؛ لجأنا لدهانات موضعية أو علاجات أخرى كالأقراص أو الحقن.. فيتامينات وغيرها أتتنا بها الجارات حانقات، لكن شيئا لم يصلح الحال فأحزن هذا ماما وزاد الحزن من تساقط شعرها فَرُحنا نهدهدها أكثر، حدث هذا في وقت اختفتْ فيه كل دودات القز من البيت ولم يبق لدينا خيط حرير واحد،

هـذه الـدودات التـي بـدأ أبي يُربيهـا بعدمـا مرضـت ماما ليشـغل وقتـه، ولهـذا علَّمنـا أنـا وفوفـا مسـاعدته في تغذيتهـا ورعايـة دورة حياتهـا، وحفـظ منتجهـا، كانـت دودات القـز عالمًـا شاسـعًا ومثيرًا، وكانـت تـدر علينـا دخـلاً لا بـأس بـه، توقـف توقفًـا دراماتيـكًا ذات صبـاح دون سـبب واضـح، إلا أن أبي لم يتوقـف عـن الخـروج يوميًـا مـن شقشـقة الصبـاح حتـى آخـر الليـل، متخليًـا عـن اهتمامـه بالبيـت، ورعايتـه لماما ولابنتيـه، يخـرج مـن أجـل جمـع أوراق التـوت عـلى أمـل عـودة الـدودات، جمـع الكثـير ولم يتحقـق الأمـل، تكدسـت الأوراق حتـى جفـتْ عـلى أرفـف المطبـخ التـي خلـتْ مـن الطحـين والأرز والزيـت. ولكـن بنفـس فجـاءة المـأزق لاح الحـل في رأس ماما عندمـا سـقطت شـعرة في إصيـص زرع وبـدأت تنمـو، وفوجئنـا بخصلـة سـميكة مـن شـعر ماما آخـذة في الـبروز مـن قلـب الطمـي. في البدايـة لم نفكـر بأكـثر مـن إعادتهـا لـرأس ماما، لمكانهـا الطبيعـي «حتـى نـداري قرعتهـا التـي تتسـع كل يـوم» لكن الـرأس رفـض الشـعر الجديـد وربمـا اعتـبره غريبًـا لأنـه أخـذ عـلى الفـور يلفظـه، الخصلـة الثانيـة بزغـت في إصيـص النعنـاع وكانـت لهـا رائحتـه، فاقترحـت أختـي فوفـا أن نعرضهـا للبيـع، ووجدنـا إقبـالا هائـلاً، وخـلال فـترة قصـيرة كان المسـتزرع مـن شـعر ماما يعتمـر رؤوس أغلـب نسـوان الحـي، ثـم زحـف إلى الأحيـاء الراقيـة، ثـم المنطقـة كلهـا بعـد أن صففـه شـباب الكوافيرات في تسريحـات مختلفـة؛ كـما أبدعنـا في زرع شـعر ماما بروائـح مختلفـة «ياسـمين، بنفسـج، نرجـس، ليمـون... إلـخ» شرط أن تكـون شـعرة البدايـة مـن شـعر ماما الأصـلي، لا مـن الآخـر المـزروع ولا مـن أي شـعر آخـر،

فلا شعري ولا شعر فوفا أظهرا جدوى. مع كل نزع لشعرة كنت الملح تقطيبة بوجه ماما لكن فوفا طمأنتني لِكَون الأمر غير مؤلم، وصدقتها لأنها أكبر مني، رغم أني لمحت دموعًا بعيني ماما، مع كل نزع لشعرة تظهر دمعة أكبر حجمًا وأكثر لمعانًا من سابقتها، أصرت فوفا أنها ليست بدموع ورفضت اقتراحي بإعادة استعمال العلاج لفروة رأس ماما، وقالت إن مخيلتي شغّالة على التفاهة وإن الأفضل أن أهتم بالعمل الذي -والحق يُقال - تهتم هي به أيما اهتمام، فقد صار كل حياتها ومعنى وجودها، لا يفرحها إلا إنجاز تحققه، وكل إنجاز يمنحها الثقة بنفسها واحترام وتوقير الناس الذين صاروا يعملون لها ألف حساب، وينحنون بإجلال للشابة الصغيرة التي نجحت في إنقاذ أسرتها. على أي حال استمر الأمر وراجت التجارة وكانت مشكلاتنا المادية على وشك أن تُحل، خاصة مع استلام أبي لعمل جديد بأجرٍ مجزٍ، وهو ما جعله يطلب منا أن نتوقف عن نزع شعر ماما، أحسست بارتياح لطلبه فيما رفضت فوفا بشكل قاطع ونهائي التخلي عن عملنا، وقالت: تخلى عنا سابقا. ما الضمان ألا يفعلها مجددا؟ قالت ذلك بصوت مختلف عن صوتها الطبيعي، وأنا أصغيتُ إليها إصغاء شخص بلا أذنين، شخص لم يمتلك الشجاعة لمواجهة الآخر الأكبر منه، الذي لا يدخر وسعًا في رعاية أمهما في كل الأمور الحياتية والصحية الأخرى بالشكل الذي يعجز الصغير عنه. كنت أنتهي من صلاتي وأرفع عيني ويدي إلى الله بالدعاء أن يشفي ماما وأن يعود بابا لاهتمامه بنا، لكن بمجرد أن أنزل ذراعي إلى

جانبـي تبـدأ عينـاي تتخاصـمان.. واحـدة ترقـب ماما وتمتلـئ بالشـفقة، والأخـرى تلتمـع وهـي ترقـب فوفا التـي ازداد تألقها، فطالـت هامتها وانفـرد ظهرها ونفـر نهداها لمسـافة أدهشـتني. اسـتمر الحـال هكـذا لفـترة إلا أن المـأزق تجـلى أمامنـا فجـأة، وهـو أن شـعر ماما الحقيقـي يوشـك عـلى النفـاد، لم تبـق إلا عـدة شـعرات، جـرفَ نـزعُ إحداهـا أكـبر دمـوع ماما التـي يصعـب اعتبارهـا مجـرد دمـوع. اسـتوقفتني فوفا حائـرة، مرتبكـة، وهـي تحمـل الدمعـة الكبـيرة في راحـة يدهـا؛ للمـرة الأولى أراها بهـذه الحـال، فـردتُ هامتـي ثـم انبريـتُ أشـير لهـا لـكي تفتـحَ الـدرج وتسـتخرج الكريمـات والمعالجـات، فعلـتْ بانكسـار وبيـد مرتعشـة، تركتُهـا تدهـن لماما وداريـت ارتياحـي لإقرارهـا بأننـا لا بـد أن نعالـج فـروة رأس ماما، ولا بـد أن نمسـح دموعهـا قبـل أي شيء. لم أخبرهـا بعـد أن ماما تحركـتْ قبـل قليـل، للمـرة الأولى منـذ فـترة طويلـة، رفعـتْ ذراعهـا لترينـي غابـة مـن الشـعر في منطقـة تحـت الإبـط، شـعر أسـود ناعـم وطويـل يكفـي لدفـع مشروعنـا الاسـتثماري دفعـة قويـة جديـدة.

عفاريت النزلة

كنـتُ مُتحـيرًا إن كان وجهـه متجهـمًا أم أن ابتسـامته شـبيهة بالتجهـم، فيـما كان بوضـوح يقـول:

- نحن نعيش أحسن عيشة.

تنهـد ثـم شرح: أنـت هنـا لا يمكنـك أن تلعـب الكرة في الشـارع. لا يمكنـك أن تزعـق عـلى ابنتـك الصغـيرة لـكي تشـاهدكَ مـن البلكونـة وتهتـفَ مُشـجعة عندمـا يُسـعدك الحـظ بتسـديدة حلـوة. هنـاك دائمًـا مـن يتأففـون منـك إذا حاولـت فقـط أن ترفـع صوتـك، مـن يغسـلونك بنظراتهـم اللعينـة، مـن يراقبونـك ويتربصـون بـك، أمـا نحـن فالحـال مختلفـة. فقـط أعـطِ ظهـرك لوسـط البلـد وسِر.

وضعـتُ الخبـز المحشـو باللحـم المُتبَّـل في المايكروويـف وأنـا أصغـي لخارطتـه المدهشـة:

- تـترك منتجـع الفيلـلات بكلابهـا «الجرمـان شـيبيرد» وتعـبر شـارع السـيارات الـذي ينزلـق فـوق أسـفلته فِـرد الكاوتشـوك كخيـوط الحريـر. بعدهـا لـن يكـون عليـك سـوى أن تمـضي قدمًـا حتـى تجـد نفسـك عنـد موقـف الميكروباصـات الـذي يعـج بالخلـق والبضائـع.. ركّاب وسـواقين وباعـة جائلـين، ولاد نـاس وصيـع ولاد أبالسـة. صيـاح وهتـاف.. هـات وخـد. إنتـش. إهبـش. خلّص نفسـك واجـري.. وصـولاً إلى السـوق الجهنميـة التـي تنمـو شـيطانيًا، تتمـدد في كل اتجـاه دون إذن ولا تصريـح.. لا مـن الحكومـة ولا مـن النـاس

ولا حتى من رب الناس. على أي حال لا بد أن تنتزع نفسك من كل ذلك وتمضي بنفس الاتجاه، حتى يجرح عينك انعكاس الشمس في صفيح العشش وحجرات الصاج، ثم أسقف الغاب والخيش حيث يعيش أهالي نزلة سلطان «وأنا أحدهم».

انتبهتُ لمرور الوقت عندما لاحظت شمشمات منخاريه ابتهاجًا برائحة الشواء، كان قد بلغ به الحكي قصة «صفوان» الذي انقض على زوجته ليركبها فصعقته برفضها، ركلها فصرخت: عايز تموتني يا واطي! عندها انتبهوا إلى الهواء من حولهم «كل شيء مكهرب»، لسعة كهرباء في ركلة صفوان أو في ضربة زوجته أفقدت كليهما صوابه، لسعة صارت تصيب الواحد منهم عند لمس أي شيء، تسري في الجسد مثل سيخ من قشعريرة حامية وباردة ومؤلمة في نفس الوقت. لم يهتدوا لما يسببْ كل ذلك بشكل قاطع، إلا أنهم لاحظوا ازدياد الكهربية مع دق المزيد من أبراج الهواتف المحمولة فوق سطح الجمعية الخيرية التي تتوسط مساكنهم.

-ولكن لمَ اختاروا نزلتكم؟ تساءلت.

لم يجب، فقط استطرد: الحق أن احتراق مواتير تلاجة عباس وغسالة زين وتليفزيون رضا.. كدر عيشنا، والحق يقال فقد أردنا أن نعتبرها صدفة لا علاقة للمحطات بها. وكإجراء احترازي «حتى لا نخسر الجلد والسَقَط» اضطررنا لأن نفصل هذه الأجهزة أغلب النهار، وحُرمنا من الماء البارد والأهم من

مشاهدة المسلسلات وبرامج «عرب أيدول»... إلخ. صرنا، والحق يقال، كئيبين مهمومين «مبوّزين»، إلى أن لمس «الواد رُوقة» مصادفة تليفزيون «سمسمة». احتضنه بذراعيه لينقله من الصالة إلى الصندرة: مخزن الكراكيب.. فإذا بالجهاز يشتغل من أول لمسة صوت وصورة كأنه موصل بالكهرباء «المضبوطة»، كأن ذراعي روقة هما قطبي الموجب والسالب، هلَّلنا وتفرَّجنا حتى الصباح على تلفزيون «سمسمة» وهذا ما صار يتكرر كل ليلة، وقبل أن نفترق كنا نعمل أحسن واجب مع الواد روقة «شندوتش متين أو حتة حشيش» لنعوضه عن النَشر بذراعيه طوال الوقت، ثم تطورت الخدمة فصرنا نشغل الثلاجات والغسالات بقطبيه وقبل انتهاء المهمة يكون «واجبه» بجانبه. كنت أختار له المشوي من أحسنها حاتي. أصل أنا خِبرة. وهو يأكل كفايته ويصر أن يعطيني الباقي.. ألم أقل لك إننا نعيش أحسن عيشة؟!

زفرت طويلا وأومات برأسي.

أخرجت الخبز من الفرن ووضعته في صحن أمامه: بِسْم الله.

قضم قضمة صغيرة مُستحلبًا الطعم بتلذذ، ثم مصمص شفتيه بأسى:

- ياه! فكرتني بأيام روقة.

تساءلت بفزع: ماله روقة؟ مات؟

- تِف من بُقك. هتف وهو يزدرد متعجلاً ثم أكمل:

- زي ما تقول الفولت بتاعه فصل. الدكتور قال كل حاجة كويسة. بس ماعادش يقدر يشحن أي جهاز.

مد يده وقرَّب اللقمة من فمه وقبل أن يبتلعها:

- وشوف رحمة ربنا. من ليلة ما يرقد روقة لا قادر يرفع إيد ولا رِجل. تظهر الأمارة في الواد يونس علشان النزلة ماتضلمش.

هتفتُ مشدوهًا: آاااه!

تنهد وهو يعيد اللقمة دون أن يأكل. أشرت للصحن فهز رأسه رافضًا.

جلد سلخته الشمس

الباب القديم مُقشَّر ولا يبلغ الأرض، بل يترك مسافة تكفي لتسريب الصوت.. الصراخ الذي يترجَّع في أذنيكِ مهددًا بانفجارهما. لأول مرة ترَين هذا القبح! عورة الخشب في الباب المتهالك الذي استباحته كل كفٍ وتركت عليه عرَقها وبَصْمَتَها وغبار خلاياها! كيف لم ترينها طيلة هذه السنوات!

تهبطين ببصرك نحو الأرض، ثم ترتقين أعلى الجدران.. كل شيء يثير اشمئزازك، تلتفتين نحو النافذة المشرعة.. هناك؛ على مدى الشوف تلمحين طفلة بثوبٍ منفوش، لَبني اللون، تعدو فيهفهف شعرها فوق كتفيها ويسبقها نسمة رقيقة من عبق زهر النارنج؛ تبدو هذه الطفلة في العمر الذي لا تُسعف فيه الذاكرة أحدًا ليقول: كان لي أبٌ طيب، أمٌ حنون، كنا نعيش في بيت جميل، العمر الذي لا يحتفظ الذهن بصورة مؤكدة عنه، بل فقط هالة لَبنية.. ومسحة عَفرتة وشقاوة، يصفونه بـ: «عمر الزهور»، وهو نفس عمر العيل الذي يوجعكِ صراخه الآتي من تحت الباب.

الباب الآخر المُطل على الخرابة ليس مُقشرًا لكنه مصنوع من معدن صدئ، يظهر عنده «الواد حسونة»، بضحكته السمِجة المتقطعة بتناغم مع عرجة رجله..

ألفِتُ عيني للجهة المقابلة لكنه يبادرني:

- ده عيل من الجداد؟

فأومئ برأسي: نعم.

يمسح عرقه بيده المعفرة ثم يمسد بها رِجله القصيرة، يمررها فوقها عدة مرات، ثم يجلس على طرف الدكة الآخر المقابل للطرف الذي أجلس عليه وبين سماعنا لصرختين يتساءل:

- بتاع قويسنا ولّا شبين؟

أتنهد طويلا قبل أن أهمس: شبين.

يمد يده مناوشا في المساحة الفارغة بيننا وهو يضحك:

- ده أصلاً ماحدش سأل عليه. مزعّلة روحك ليه؟

همست وأنا أدفع يده القريبة من صدري بعيدا: - مش مزعّلة.

أعاد يده إلى جنبه ثم مدها في جيبه وأخرج عُقدًا من خرز لامع ملون، غمز بعينه «كأن بيننا سرًا» ثم همس وهو يرفعه ليزغلل عيني:

- علَّقتهولك من مَرة إنما إيه! مُزة بنت أبالسة. شوفي.

صحت وأنا أقلب شفتي وأُدير بؤبؤي عيني بعيدًا:

- بلا قرف.

علـت صرخـة مـن وراء البـاب بنفـس لحظـة قيامـه واقترابـه رافعًـا العقـد بمحـاذاة عنقـي هامسًـا:

-قرف يا هبلة! ده هيبقى عليكي لوز.

ثم وهو يمد يده مجددا نحوي: هياكل منك حتة.

- مش عايزاه. صحت وأنا أرد يده محتدة.

مُصر عـلى الاقـتراب، صرخـة جديـدة تتـسرب مـن تحـت البـاب، والعقـد يغـشى عينـي بسـحر ألوانـه وبريقـه. يهمـس صائحًـا وهـو يميـل بقـربي:

-استني بس.

تراجعـت وكـدت أنزلـق فـوق البلاطـة المكسـورة، اهتاجـت أعماقـي غضبًـا ولوحـتُ لـه بقـرن غـزال اكتشـفتُ في تلـك اللحظـة أني قابضـة عليهـا منـذ فـترة لا أعلمهـا، لملـم دهشـته وشـخر:

-يا بت المهابيل. عليّ أنا؟

كان الـصراخ قـد توقـف وتوقعـت أن يظهـر حسـبو ويفتـح البـاب بـين لحظـة وأخـرى، ويـترك لنـا العِيـل الـذي قطـع رجلـه قبـل لحظـات لنداويـه. سـيوصينا بمـداواة جيـدة:

- بضمير. آه. علشان هناكل من وراه الشهد.

مـال حسـونة حتـى كاد يقـع فانكشـف الأثـر القديـم برِجلـه،

وبـدا مثـل جِلـدٍ سـلخته الشـمس، راح يحـدق إلى نهـدي ثـم مـد يـده ليهبشـه:

-الوقتي أقول لحسبو وأخليه يقطعهولك. هههههه.

غـززتُ يـده بقـرن الغـزال فتراجـع متألمًـا، لم أسـمع بقيـة مـا قاله، كانـت إحـدى عينـي تتيـه في بريـق خـرزات العقـد، فيـما الأخـرى تتابـع قسـمات الألم في الوجـه الطيـب لرفيـق السـنوات الطويلـة؛ فكـرتُ بالعنـاء الـذي تكبـده لأجـلي. ضحـكَ فضحكـتُ ثـم خطفـتُ العقـد مـن يـده وقفـزتُ إلى الخـارج، فقفـز ورائي مقهقهًـا. رحـتُ وأجـري وأجـري، قـدر اسـتطاعتي، أحـاول اللحـاق بالبنت المسـبوقة بعبـق زهـر النارنـج. البنـت التـي لم يقطعـوا رِجلهـا بعـد.

خوذة روميل

سماء صافية، مياه شفافة تركوازية الزرقة، وأمواج هادئة تغري بالغوص بهذه البقعة من الأبيض المتوسط الذي إذا ما أعطيته ظهرك فلن ترى بامتداد الأفق سوى تلال الرمال عارية تحت رحمة السماء، ناعمة يميل صفارها للبياض، وما يبدو كالماء من بعيد يتضح أنه ليس سوى سراب، وعلى مرمى البصر تبرز شواهد قبور بأعداد هائلة، فيما يظهر عدد من النصب التذكارية لجنود من مختلف الجنسيات قضوا قبل ٧٠ عامًا، وما زال «أحفادهم» وسفراء دولهم «أكثر من ١٥ دولة» يأتون لذرف الدمع وإبداء للندم على حرب شهدت هذه الرمال معركتها الأهم «العلمين» التي حسمت الحرب وغيرت وجه التاريخ. يمسحون دموعهم ويذهبون للفندق ذي القاعات الزجاجية المكتظة بأجهزة بحثية تكنولوجية، كمبيوترات وشاشات للعرض حتى ليبدو كأنه طبق طائر حط هاهنا، يدلفون تاركين الرمال لأبنائها، بألغامها أو ألغامهم التي دسوها لبعضهم البعض وما زالت للآن تنفجر وتطيِّر ذراعًا أو ساقًا. تبتسم شادية للكاميرا وتقول: إحنا محظوظين. أنظر لرفاقها، بأطرافهم الصناعية، ويدهشني زهوهم، يقولون إنهم ينعمون بمزايا لا يعرفها الكاملون، تلاحقهم الفضائيات ويصبحون نجوم شاشاتها؛ فقْدُ يد يجعل الأخرى أقوى «تسترسل شادية»: تصبح أقوى من اثنتين معًا، فقدُ يد يمنح القدم فرصة لإظهار مواهبها، فالسجاد المنسوج بأصابع القدم على النول جاب معارض عالمية

وفاز بجوائز وحقق شهرة لمنتِجه، فنال تكريمًا ووُضعت صورته بإحدى الموسوعات؛ ابتسمتُ وحركت الميكروفون بين أفواههم ونبهت «عمرو» للكادرات المؤثرة: شهادات التقدير والدروع النحاسية؛ ضحكتُ من نوادر أحدهم مع شبح «روميل» وخوذته الفضية اللامعة تحت ضوء القمر، والتي يُميلها جهة اليسار عندما يبدأ تلاوة بيانه.

- بيان؟!

يؤكد لي إصراره على تلاوته «بالعربية» عندما يصادفه واعدًا بالانتقام من زارعي الألغام، كما ذكر آخَر: المرة التي أنقذه فيها روميل من انفجار محقق وكيف أخذ بيده لبر السلامة. حاولت إقناعهما بأن كل المتحاربين بما فيهم الألمان دسوا الألغام للآخرين لكنهما لم يتزحزحا عن قناعتهما بشهامة روميل. أداري ابتسامتي وأشعر أنني محظوظة بالتحقيق الصحفي، وكذلك بوقت طيب قضيته معهم، حكوا، بين رشفات الشاي في منزل شادية وزوجها، تفاصيل إصاباتهم وانتهوا بنعمة «الزوجية» فبدل اليد منحنا الله اثنتين وكذلك الأرجل... إلخ؛ إحساسي بمعاناتهم جعلني أقرر الخروج -رغم تأخر الوقت - من أجل «شادية»، سأعطيها الحذاء «البووت» كما وعدتها -سيكون أفضل لتغطية القدم الصناعية «الخُردة» التي تستعملها - فالفرصة الأخيرة هي الآن قبل هبوط الليل، فغدًا ختام المؤتمر، لن ألغي المشوار لكون «عمرو» ذهب مع إحدى السائحات أو لأن البيت يقع بالقرب من منطقة الألغام.

ضغطتُ جيبي واطمأننت لوجود الكشّاف الصغير. ليس من طبيعتي التخوف من الليل، أو الفراغ أو من غوص قدمي في موجات الرمال العاتية.. لا؛ ولا من النحيب المتسرب من بيت شادية، أهو نفس البيت الذي ضج أمس بالتفاؤل والضحكات؟ ما الذي يجري؟ قالت شادية وهي تمسح وجهها إن ساقه «زوجها» تؤلمه. يفجعني وجهها؛ كيف تغير وقبح؟ لكن ذهولي من العبارة أكثر: ساقه تؤلمه. -مكان الجراحة؟ تشير برأسها: لا، وتهمس: الفراغ مطرح البتر. كيف يؤلمه والساق مبتورة؟ «أتساءل»، أسمعه يُقسم بأغلظ الأيمان إنها تؤلمه وأن البروفيسور الأسترالي أكد حدوث الألم مع أغلب المبتورين، بموضع العضو: الفراغ الذي كان يشغله قبل بتره، حيزه الافتراضي. يُقسم بتأكيد البروفيسور الكندي نفس «السيندروم»، يستأنف نحيبه، فيما تولي شادية وجهها بعيدًا، ما اضطرني لتوديعهم.. خرجت وحيدة، قلقة، فلحقت بي:

- انتظري نوصلك.

لن أنتظر.

-خدي بالك...

تقاطع تنبيهاتها خطواتي، ألملم روحي وأتحسس الكشّاف، قدماي تغوصان بالرمل وكل شيء يغوص في ظلام ثقيل، لم أَخَف الظلام يوما، لكنني أنتبه لتحركي.. بغير اتجاه. أتقدمتُ؟ تأخرتُ؟ أهو اليمين؟ اليسار؟ فقدت الاتجاه، لم أَخَف؛ هه! الكشّاف

لا يعمل، لن أخاف. ولكن هذا الملمس! أتكون هي الأسلاك الشائكة! أتجمد مكاني، هل أنا داخل المربع المحظور؟ أخشى أن حرّكت قدمي ينفجر لغم. قد تتفجر ذراعي، قدمي، تصبح نتفَ لحمٍ مشوي، أسيتركونها للجوارح؟ أسيستخدمونها كوقود؟ وماذا فعلوا بجنيني «سقط رحمي»؟ أفقت من التخدير ذلك اليوم فلم أجد شيئًا، لم ينتبه أحد ليأخذ نتف الجنين؛ أجهدني الإنكار، نجوت من الموت ولكن فلاعترف بفقداني، بصحة ما قاله البروفيسوران عن العضو الشبحي، بالألم، تلك الوخزة المفاجئة بعمق الرحم «موضع التصاق الجنين»، وددت أدفنه بيدي «حتى لو نتف»، أن أضع لقبره شاهدًا كهذه القبور، لربما غفا بسلام، ولم يعد بذلك الوخز الذي كأنه سيبقى للأبد.

الكشّاف تعطل، أخشى الانفجار، الألم، الإعاقة.. قدمي تنزلق، وخوذة روميل تضوي...

هل مشيتُ؟ أم حملني؟ فعندما فتحت عيني وجدتني على كرسي.. بقاعة الندوة الختامية، وكانت حقائب السفراء بجوارهم استعدادًا للمغادرة، وبجوار الباب ظهرت شادية وزوجها يتحدثان، مبتسمين، بميكروفون إحدى الفضائيات، وفوق نفس الباب ظهرت صورته بالخوذة الفضية، قلت لعمرو إنه أنقذ حياتي ليلة أمس، فضحك:

-وماله؟ أنا وروميل واحد.

دُهِشت من لمعة كاميرته «الفضية»، ثم طالعت من وراء الزجاج رمالاً لا يترك المشي فوقها سوى أثر خفيف.

قطار

جيد لو تجدين التذاكر قد نفدتْ، لو تجدين القطار معطلاً، لو تجدين أي حجة للاعتذار، مشوار مُضيع للوقت، مُجبرة على الذهاب حتى لا تغضب أمك، مع أنك من فترة طويلة ما عاد «واقعيًا» يعنيكِ غضبها، لكن اليوم أمر مختلف، اليوم تدفن من يهمها أمره، رفيق حياتها منذ مات أبيكِ، سنوات طويلة مضت، تتحاملين على نفسك وتدفعين رجليكِ فوق بلاط السكة الحديد الداكن الوسخ الذي تنبعث منه رائحة غريبة، غير محببة، وتنظرين شذرًا لقاطع التذاكر الذي لمس يدكِ وهو يعطيكِ التذكرة في شكل بدا متعمَدًا.

تسيرين وفق الإشارات خائفة من أن تكون خاطئة وتأخذكِ لمكان لا تحبين أن تكوني فيه، تتجاوزين الشبابيك مهترئة الزجاج، بما يتوارى وراءها، واحدًا تلو الآخر حتى تجدين نفسك إزاء الباب المعدن الضخم الذي كان قبل لحظة يبدو بعيدًا، تُفاجئين بالتكدس عند المدخل، تخشَين أن تهصرك الأكتاف التي تحاصِركِ كحشوة سندوتش. تسمعين صوتًا غليظًا آتيًا من وراءك يزمجر بكلمات فاحشة عن القطارات وما يحدث في القطارات. تقوسين ظهرك هربًا من عيونٍ تشعرين بأنها تحدق إلى منحنى صدرك، وتحيطين نهديكِ بذراعيك، يأتي من وراءك شاب تتبينين وسامته «المُقلِقة» بينما يعبر حتى يتقدمك وهو يهمس متسائلاً: الكمساري جوه؟ تحتارين هل من الضروري أن تجيبي: لا؟ وقبل أن تنطقي يكون قد دلف

بقـوة دفـع الزحـام داخـل العربـة الأبعـد عابـرًا الوصلـة المخيفـة، كَهُـوة سـحيقة، بـين العربتـين.

الأم الشـابة التـي فضلـتِ الجلـوس بجوارهـا تمـد يدهـا نحـوك بكعكـة ذات رائحـة شـهية، تتعففـين، فتُلـح:

- ماترديش إيدي. النبي قبل الهدية.

تقضمـين مبتسـمة، يذكّـركِ الطعـم بفـرن الخبيـز في بيتكـم القديم الواسـع، الـذي غـادره أبـوكِ مبكـرًا ثـم احتلـه زوج أمـك طويـلاً إلى مـا قبـل عـام، عندمـا أخبرتـكِ هـي بانتقالهـما إلى «ميـت الغـارب» الشـهيرة باسـم «وادي الصفصـاف». تنتبهـين عندمـا عندمـا ترفـع الأم صغيرتهـا وتؤرجحهـا في الهـواء تكتشـفين أن الصغـيرة، عاريـة السـاقين، أكـبر مـما حسـبتِ. تنتبهـين عـلى صـوت راكـب «شـيخ أصلـع» بالصـف المقابـل يهتـف: شـايفين! ويشـير لخـارج الشـباك، تنظريـن فتريـن رجـلاً مُعلـق بأعـلى سُـلَّم خشـبي طويـل، يحـرك يـده ويُرجِـع عقـارب سـاعة المحطـة إلى الـوراء. يهتـف الشـيخ الأصلـع:

- راجل مجنون. دلوقتي القطر يمشي بالعكس.

تضحكـين ويضحـك آخـرون. يهدئونـه: لا ماتخافـش. يعـود لأذنـك الصـوت الأليـف لـلأم الشـابة تهدهـد البنـت ثـم تنظـر لبقيـة الكعكـة بيـدكِ مسـتطردة: كل أسـبوع أعجنهـا وأقرّصهـا وأخبزهـا علشـان آجـي أزور «المرحـوم» وأفرقهـا رحمـة عـلى روحـه. تجفلـين

قليلا وأنتِ تفكرين بقُرَص الرحمة، وبأمك والرجل الذي تدفنه الآن.. هل سينال الرحمة؟ تشعرين بشيء يتجعد داخلك، بعمودك الفقري يأخذ في الانحناء، تتشبث عينك بابتسامة الأم الشابة التي تجعلكِ تنطقين بكلمتي ثناء على مهاراتها في الخبز. لا تبدو تسمعك ولا تسمع البنت التي يعلو صوتها بضحكات لافتة، تستطرد هامسة: عشان ولاد الكلب اللي بيشنعوا عليّ ويقولوا تقتل القتيل وتمشي في جنازته. تقولشي أنا اللي وقّفت قلبه!

تشعرين بالقُرصة تقف في زورك وتُوسِعين مكانك للصغيرة التي لا يسعها حِجر أمها، تنتقلين لكرسي آخر، تختارين المجاور لعجوز محنية فوق نفسها تغط في النعاس، يلفتكِ في تلك اللحظة فرار الشاب الوسيم عند مرور الكمساري، وتضبطين نفسك تتابعينه دون تفسير. يتنهد الشيخ الأصلع وهو يقلِّب الجريدة متأففًا:

- يا سااااتر! مافيش غير جرايم. اغتصاب. حروب.

يغلق الجريدة فيمد الشاب المواجه له يده، فيعطيه الجريدة، يأخذ الشاب في تقليب صفحاتها صامتًا.

من مكانك تلمحين من وراء الزجاج صفوفًا من شجيرات «جهنمية» بورود حمراء نارية فيزيد وجودها قلقكِ الغامض، وتُدهَشين من غياب الصفصاف ويتردد السؤال عن القطار داخلك: إن كان يمشي إلى الوراء!

تظهر امرأة بثياب رثة ومنديل رأس يغطي قسمًا من شعرها تلوح بيدها لتبيع أشياء: أطواق شعر، بكرات خيوط، فلّايات، تتوجه للشيخ الأصلع: خد مني خليني أروح لعيالي.

-مشط؟ فلاية؟!

يضحك ويخرج من جيبه عملة معدنية يقدمها للبائعة ثم يخطفها من يدها معتذرًا:

-دي باروكة من سماحة الشيخ. ماأبدلهاش ولا بمليون جنيه.

يعيدها لجيبه ويعطيها عملة أخرى، تصلكِ البائعة وتضع الفلاية في حجركِ فتبادرينها معتذرة:

-هاعمل بيها إيه؟ تتوسلك:

- القمل كتير. بس أبيض مش باين.

تلاحظين الجهنميات ترتعد وتُسقط وردها فيتدحرج ككريات اللهب.

تسمعين البائعة تهمس بنبرة آسفة: شفت وخُفت.. الأرض تتقلب والقمل يقب ويزحف لَمّا يغطي كل حاجة.. علشان كده جبت الفلايات ومشّطت كل ركن وكل بلاطة.

-أبيض؟ تسألينها وأنتِ تتفقدين أكمام ثيابك خائفة.

تلتفتين فتجدينها ابتعدت لتتوقف عند زبون آخر.

تنهض الزوجة الشابة وتترك ابنتها، تشاهدينها تدخل التواليت بين العربتين «الوصلة المخيفة». يظهر الوسيم ويجلس بجوار البنت، يهمس فتعلو ضحكاتها ويبدو هو مبتهجًا من تفاعلها معه. فجأة تشعرين بكرسيكِ يهتز وتسمعين الصوت الغليظ آتيًا من ورائك هذه المرة أيضا، يهتف بانفعال:

- إبعد إيدك عن البنت. أنا عارف انت بتعمل إيه.

الشاب يبدو عليه الذهول فتفهمين أنه المقصود بالكلام. تلتفتين فلا تتعرفين الرجل صاحب الصوت من بين الوجوه الكثيرة. تظهر الأم عائدة لمكانها، تنتبه مصدومة لما يجري، فتسأل الوسيم:

- إنت إيه اللي جابك عند بنتي؟ عملت إيه؟

يصيح الوسيم: أقسم بالله ماعملت حاجة. أنا..

- إيه اللي جابك مكاني. مين...؟

- والله ما عملت حاجة. رجلي تعبت من الوقفة قلت أقعد على ما ترجعي.

تهتف بائعة الفلايات: ماتظلموش الجدع. القطر نضيف. القمل كله زحف برا. أنا شفت كتير. لكن الجدع ده لأ. ده طاهر.

تصيح الأم غاضبة:

- انكتمي. شوفوا مسؤول العربية. الكمساري فين؟

في لحظة كان الوسيم قد قفز قفزات متتالية حتى خرج من العربة وبدا قد تجاوز الوصلة الخطرة بين العربتين وفي الغالب قفز من القطار لأن الركاب الذين حاولوا اللحاق به عادوا يضربون كفا بكف. الأم الشابة تحتضن ابنتها وتبكي فتجدين نفسك بدون تحكم تهتفين بوجهها:

- بردو ماكانش لازم تسيبيها.

وتظهر خطوط وجه أمك من وراء الزجاج، تحرك يدها فوق الزجاج بالقماشة المطوية التي اعتادت أن تمسح بها الغبار والفضلات وبقع الدم، تسمعين صوتك يحدثها:

- ماكانش لازم تسيبيها لوحدها معاه. أي أم ماتبقاش أم لما تسيب بنتها مع واحد زي ده.. حتى لو.. جوز أمها.

تتوقفين؟ لكن متى؟ كيف؟ بعد كم من الكلمات؟ والدموع المنهمرة من عينيكِ لم تتوقف.

تنتبهين على صياح الشيخ الأصلع: الحقوا الحرامي.

سألوه إن كان الوسيم سرق منه حاجة؟ أجاب: بل الآخر. الذي استعار الجريدة. خدها ونزل.

راحـوا يضحكـون، فيـما كانـت الأم الشـابة تبـكي وتحتضـن الطفلة التـي اسـتمرت في الضحك.

مَـدَّت بائعـة الفلايـات يدهـا ومسـحت بمنديـل ورقـي دمعـكِ وهـي تهمـس:

- تلاقيهـا ماكانتـش تعـرف. خـلاص بقى سـامحي. المسـامح كريم. أشرتِ لهـا برأسـكِ، ولكـن ربمـا منحتهـا تقاسـيم وجهـكِ شـعورًا بعـدم الثقـة فأردفـت: الـلي فـات مـات. مـات وخـلاص.

نهض الشيخ الأصلع وهو ينظر من الزجاج:

ينظر طويلا ويفكر ثم يلتف نحونا:

- تصوروا! فعلا القطر كان ماشي لورا!

تظهـر أشـجار الصفصـاف المميـزة للمنطقـة في صفـين طويلـين متقابلـين، بـأوراق تشـبه شـعورًا ناعمـة وطويلـة وذات خـضرة زاهيـة، كأنهـا أينعـت للتـو.

خاتم

تنهَّـد تنهيـدة طويلـة عندمـا سـدَّ اللحَّـاد فوهـة القـبر بحجـرٍ ضخـم، كان الـتراب العالـق بالجـو قـد بلـغ الحلـوق، فيـما راح قرص الشـمس يدنـو مسـلطًا حممـه عـلى الـرؤوس، فشرعـت الأفـواه الجافـة تتسـابق إلى رفـع أغطيـة الأزيـار وملء الأكـواز بالمـاء، فيـما انحرفـت أقـدام أخـرى باتجـاه بقـع الظـل القريبـة، وبعدمـا انتهـى الشـيخ مـن التـلاوة والخطبـة والدعـاء تشـاركوا قـراءة الفاتحـة والهمـس بكلـمات الـوداع ثـم أخـذوا يحثـون الخطـى متفرقـي الطـرق، فيـما ظـل هـو بقيـة النهـار جالسًـا ليقـرأ لهـا القـرآن ويطمـئن عـلى الصبـارة التـي غرسـها بيـده عنـد قدميهـا.

لم يسـتأ لِكـون القهـوة لم تـأتِ «سـادة» كعـادة المآتـم، ولا مـن الأصـوات المتباينـة:

- صبرت ياما. وبكره تنول الخير إن شاء الله.

لأنـه تحمّـل كثـيرًا، صـبر طويـلاً، اسـتبدِلت بعبـارات العـزاء التقليديـة كلـمات للتحريـض عـلى تعويـض مـا فاتـه مـن سـنوات الشـباب مـع زوجـة مريضـة:

- عملت اللي عليك وزيادة. ربنا يعوضك بأحسن منها.

- أحسن منها؟! يقلب شفتيه متشككًا.

رغم الأسى لم ينسَ أنها حرمته حقًا من حقوقه...

-تتجوز! وماله انت حر. بس تطلّقني الأول.

-أطلقك!

لمس بذور الريحان التي أخذها معه بِنِية غرسها عند قبرها كما أوصته، وتذكّر كيف فوجيء بيده تعيدها إلى جيبه وكيف سمع همسًا داخله:

- الصبَّارة حلوة. تكفيها سقاية مرة كل عام.

حرمها من الريحان الذي تحبه وتجفف بذوره وتخزنها كي تعيد زراعتها.

يطرق برأسه نحو الأرض عندما يسمع أصحابه يرددون بنبرة واثقة:

- فلان.. أول ما عرف ان مراته جالها المرض ده راح اتجوز. وبيبعت لها مصاريفها كل شهر.

-عدًاه العيب.

- حقه وحلاله. هيه مريضة وهوه مقتدر.

تهمس أمه في أذنه:

- حلالك بلالك ورزقك نادالك. ومادام مراتك مرضت يا حبة عيني يبقى من حقك تتجوز.

ثـم يعلـو صوتهـا بانفعـال: وأصـلا ده حقـك حتـى مـن غـير ماتكـون مريضـة.

إذا كان هـذا رأي امـرأة مثلهـا «ليـس فقـط أمـه، بـل بعـض صديقاتهـا أيضًـا»، فكيـف يرفضـه هـو؟ وفيـما اعتبرهـا حرمتـه، بِردِّهـا الحاسـم، حقًـا مـن حقوقـه الشرعيـة، لاحـظ منـذ تلـك اللحظـة تغيرهـا، إذ راحـت ترمقـه بنظـرة غامضـة؛ لم تغـير معاملتها المثاليـة لـه، ظلـت حتـى يومهـا الأخـير تعاملـه كملِـك، عـدا أثنـاء النوبـات التـي لم يكـن يبـارح فراشـها خلالهـا، حتـى إنـه كان في الشـهور الأخـيرة يحملهـا عـلى ذراعيـه وعـلى رمـوش عينيـه إذا احتـاج الأمـر. كان الكثـيرون يحسـدونهما رغـم وعـورة الظـرف.

نظرتهـا الغامضـة هـذه لم يتذكرهـا إلا مـع العـروس الثالثـة، أي بعدمـا تكـرر الإخفـاق في التواصـل ثـلاث مـرات «ثـلاث زيجـات".

-لماذا؟ ما عيبي؟ ما عيوبهن؟

استعاد امتعاضه من ضحكة الأولى:

- سخيفة، وأيضا لفمها رائحة بكابورت.

وخوفه من مكر الثانية:

- خِنِّيسة، تاكل مال النبي وتحلي بالملايكة.

واختناقه من سيطرة الثالثة:

- تِقيلة.. يا ساتر! لو قعدت عليّ تفطسني.

استعاد أيضا اندفاعه في إنهاء الارتباط.

يمصمص شفتيه وهو يهبط بنظره لما بين ساقيه ويلوم كائنه الذي تسبب له في حرج شديد مع ثلاثتهن:

- لا يهش ولا ينش!

- فين أيام صولاتك وجولاتك؟ لما كانت الله يرحمها تعقد شعرها بالفيونكة الحمراء فتعرف عن لهيب رغبتها! كنت دومًا تكسب المعركة والحرب كلها. ماذا دهاك؟

بعد الفشل يحلو التفكير، لم تنفعه استشارة رجل الدين ورجل العلم، ما أعاده لأمه:

- عاملة لك عمل أكيد.

يضحك. في الليل سمع نهنهتها. أحسها بحرارة جسمها تهف من الفراش بجواره وما أن انحنى ليقبِّلها حتى اختفت، مخلفة صوتها... بنبرة ألمها التي عرفها لأول مرة لحظة صارحها برغبته في الزواج.

ولكنها توفيت قبل أن يتزوج.

- فلمَ الانتقام؟

ألأنه حرمها من الريحان الذي تحبه؟ أم لأنه أذلها فوق

إذلال المـرض بالـشروع في الـزواج بأخـرى؟ سـأله صوتهـا المتـألم: أكنـتُ أفكـر بغـيرك لـو أنـك مرضـت؟

-هه! شهق متأثرًا بصوت ألمها.

اسـتقر، رغـم ثقتـه بحبهـا، عـلى كَونهـا وراء معاناتـه. نعـم، تنـوي أن تنغـص عيـشي وتحرمنـي مـن السـعادة. وتحرمنـي ألا أكـون لغيرهـا.. سـتجعلني أضحوكـة؟

نعم؛ ستعتبر الانتقام حقها. لن تتنازل عن ثأرها؛

هو أيضا لن يتنازل عن ثأره.

لم يبتسـم لـ«الـواد حـودة» الـذي أخطـأ وأتـاه بقهـوة سـادة بـدل الزيادة:

-نسـيت؟ بقـى لـك عـشر سـنين في القهـوة دي بتجيبهـالي كل يـوم زيـادة. وفجأة نسـيت؟

تركـه ومـشى، تحمّـل حـرارة الشـمس وملوحـة العـرق وتـورم قدميـه ووخـز الهيـش لصـدره وعنقـه حتـى وصـل، كان الحـر قـد انكـسر وأتى النسـيم رطبًـا منعشًـا، وجـد الصبّـارة «مفعوصـة» كأنمـا داسـتها عجلـة سـيارة، وبجوارهـا ظهـرت تباشـير ريحانـة ناهضـة بفـوح منعـش، مـد بـصره فأدهشـه أن الحجـر الضخـم لم يبـارح مكانـه.

تلصص على أنقاض

يذكـرني غسـيل أسـناني لحظـات التعجـل والتوتـر بقطـار السـكة الحديـد. الفرشـاة هـي القطـار وأسـناني هـي القضبـان. القطـارات كثـيرة والسـكك متعـددة بينـما الحديـد لا يشـبه إلا ذاتـه.. هنـاك حيـث المنجـم -تأخـذني الشاشـة - تنتصـب هامـات الرجـال، لا يأبهـون للوَحشـة ولا للظـلام، لَيلهـم مثـل نهارهـم، يتصببـون عرقًـا، صيفهـم مثـل شـتاؤهم، والحديـد لا يشـبه إلا ذاتـه... يمـرر أحـد الرجـال جهـاز استشـعار يكشـف عـن وجـود الخـام فيبـدأ التهليـل، وقـد يسـتدعُون إذا تعطـل جهازهـم عجـوزًا عميـاء تنقـر الصخـر، بإيقـاع ثابـت بأصابعهـا الدقيقـة، حتـى إذا أوقفـت النقـر أو غـيَّرت الإيقـاع عرفـوا أنهـم قـد بلغـوا هدفهـم فيبـدأون الحفـر. وفي شاشـة أخـرى يهـز الضحـك الإسـتاد عندمـا يعلـو هتـاف النجـم «عـادل إمـام»:

- الأهلي حديد.. وأنا رُكبي حديد.

فيـما تُظهـر الكامـيرا ركبتيـه ترتعشـان فيرتعـش معهـما الجسـم كلـه، كأنـه مصـاب بالشـلل الرعّـاش، المـرض الـذي يجمـع النقيضين: الشـلل والحركـة، الرعشـة التـي لا تتوقـف، ولهـذا تكتسـب اعتياديتهـا، رغـم كونهـا الأكـثر تراجيديـة وكوميديـة.

*يأخـذني هـذا التناقـض إلى صـورة امـرأة في عنفـوان شـبابها، لديها ولـع بالـورود لـذا تجـدد صورهـا في بروفايلهـا بموقـع التواصـل، سأسـميها «سـيدة الـورد»، تبـدو كأنهـا تُـوْدِع ثقتهـا في شيء اسـمه

«الحـب» تكتـب عنـه العبـارات المأثـورة التـي تصفـه بأنـه أقـوى مـا بالوجـود..

- يواجه ويتخطى.

تقهقـه مـن ركبتـي «عـادل إمـام» ثـم تضغـط الـزر لـكي تتفـرَّج عـلى الفيلـم «العاطفـي»، لحظـة الاقـتراب الأول عندمـا يرتعـش شيء مـا في وجـه البطـل، بخـلاف الرجـل الـذي ألمحـه عـلى السريـر بجوارهـا يُقلِّـب عينيـه، بثبـاتٍ، بـين شاشـة الكمبيوتـر والأوراق. يبـدو مشـغولاً..

- أكثر إنسان مشغول في العالم!

- شُغل؟ أم مواقع إباحية؟ تتساءل في نفسها.

تسـخر مـن تحـت جلدهـا. وتحـرص عـلى ألا تقاطعـه. تدمـج نفسـها أكـثر في الفيلـم لحظـة تلاقـي البطـل بالبطلـة في قُبلـة بـدأت بحركـة خفيفـة ثـم تحولـت الآن إلى «عنـف».. أحـد أنـواع العنـف العاطفـي الـذي ينهـال عـلى دواخلهـا كالسـوط.. «مشـاعر، احتيـاج، هرمونـات تدفـع بذكريـات أيـام الخطوبـة، بقبلاتهـا المُسـتعرة، لهفاتهـا، وتوتـرات الحـب الأولى، إلى سـطح ذهنهـا»، تتزايـد أنفاسـها مـع المشـهد، تنتبـه لعينـه تراقبهـا، بحـرص مـن لا يريـد أن ينكشـف أمـره، أو مـن يرفـع شـخيرًا متكلفًـا بعـد أن يعطيهـا ظهـره هامسًـا: تصبحـين عـلى خـير.

يلتقيهـا بابتسـامة هادئـة في الصبـاح وهـي تغسـل أسـنانها -برفق

حتى تزيد بياضها دون أن تنزف لثتها - يوَدعها بقبلة خاطفة على جبينها، فتتوقع أنها ستجد تحت وسادته دليل خيانته، فلا تجد سوى «فلاشة» مغلقة تحرق دمها الذي نزفته لثتها رغم كل الحرص. تنظر للباب.. مفتوح لكنها لن تخرج، لأنها مربوطة «كالدواب؟» بوهم اسمه الحب، هكذا صارت تصفه بالوهم التافه، فالحب الذي كان في الماضي صلبًا وعفًيا لم يعد كذلك، إنه عليل وأعراض علته ليست فقط في تصنُّعِه النوم أو الانشغال بالعمل، ولا في تجاهله إياها وهي نائمة بجواره، أو حتى في فلاشة تحمل صور فحوصه الطبية، التي تؤكد عجزه بعد تعرُض المنجم لانهيار مريع لم ينجُ هو من تبعاته، بل في تلك المسافة من المداراة والتحصن كأنما من عدو، ثمة صوت يأتي من داخلها، يقول إن «الحب» أصيب بالشلل الرعاش.. لا هو ميت ولا هو حي.. مسكين.

تأخذ شهيقًا عميقًا ثم تذهب لتجدد ورود وعبارات البروفايل.

ضغطة زر تخترق الاتجاهات الأربعة للكوكب.. بحرية قصوى، وبحصانة لا تخترقها إلا أجهزة استثنائية، تتوافر لمستحوذي الأقمار الصناعية، ولأجهزة الأمن التي تتعقب الهاكرز والإرهابيين. حصانة تتيح تلصصًا مشروعًا لِكَونه تلصصًا على عالم مفتوح، وكذلك: متاحًا للجميع.

*هذا الذي كتب على صفحته إنه رأى حلمًا كالكابوس، نهض وهو بعد لم يلملم أطراف روحه، ليبحث عنها، عن

هـذه التـي زعزعـت طمأنينـة حُلمِـه، كانـت زميلتـه بالابتـدائي، مثلـه مـن مواليـد بـرج الجـدي، أيـن تراهـا الآن؟ ولمَ ألحَّـت عليـه طـوال نومـه؟ يضغـط الـزر «السـحري» الـذي يـأتي بالنـاس مـن شـتى نواحـي الأرض، بدايـة مـن رفيقـات الفِـراش وحتـى خليـلات الشـات.

«ليـلى فـوزي» عـلى اسـم النجمـة السـينمائية المعروفـة التـي تحظـى بشـعبية عاليـة، وكانـت مثلهـا شـقراء، «ليـلى فـوزي».. تظهـر كثـيرات بنفـس الاسـم، لكـن هـذه ليسـت ابنـة بلدتـه، البلـدة التـي اكتشـفا معـا أزقتهـا وحواريهـا وغيطانهـا ومقابرهـا؛ هـذه ليسـت مـن مواليـد الجـدي، وكانـوا في الفصـل يُغنـون لهـما معًـا: عيـد ميـلاد أبوالفصـاد، فيشـير كل منهـما إلى الآخـر ليلصـق بـه الوصـف أو يقذفـه بالتورتـة. نعـم، يتذكـر أنـه كـسر لهـا سِـنًا، أو تسـبب في ذلـك عندمـا دفـع برأسـها حتـى اصطدمـت بالحائـط. أراد أن يعتـذر لهـا، لكـن مـن غـير معقـول أن تكـون هـي التـي تُركِّـب الآن جهـاز تقويـم للأسـنان، وكأن السـنين لا راحـت عليهـا ولا جـاءت. نعـم، ربمـا تكـون، كعـادة النسـاء، زيَّفـت عـام مولدهـا عـلى الصفحـة لتجعـل نفسـها تبـدو أكـثر شـبابًا، لكـن ليـس إلى هـذا الحـد، ولكـن لا بـد أن يجدهـا، إنـه مُحـاصر باسـمها، بذكراهـا، ربمـا تكـون هـي هـذه التـي تتباهـى بصورتهـا مـع الفنـان الصاعـد، شـبيه «مايـكل جاكسـون»، ولكـن لا، لم يكـن أنفهـا بهـذا الطـول، ربمـا تكـون هـذه التـي هاجـرت إلى كاليفورنيـا وتقـوم بالتدريـس بإحـدى جامعاتهـا.. أوه! مـاذا تـراه سـيقول لهـا عـن نفسـه لـو أتت

في اجارة، لا؛ لا يمكن تكون هي، فهذه تعيش مع صديقة.. لا يمكن، أوه لا؛ ليتها حتى غريبة الأطوار هذه، أي شيء.. عدا أن تكون هي التي كُتبت لأجلها قصيدة..

- بكل هذه الفجاجة والافتعال!

يتمتم آسفًا، فالذكرى العشرين لوفاتها هي التي ألهمت ابنتها قصيدة الرثاء.

*المرأة التي تعيش في ظل نظام ذاتي حديدي، منحت نفسها هامشًا من الحرية للتجول بأحد مواقع التواصل رافعة راية «الخاص ممنوع»، هناك؛ بعد خبراتها المؤلمة مع طبائع البشر تحب أن تختبئ وراء الشاشة مستريحة لاجتناب العالم الواقعي، أكسبتها خبرة الهرب والاختباء القدرة على لملمة أطراف ذاتها والاحتماء الصارم بوحدتها، أكسبتها كذلك فضيلة «كف الأذى»، وصولاً إلى اختراع واقٍ «من الإيدز» تتطلبه اللقاءات الخاطفة في الغرف السرية لأحلامها، حتى تستيقظ من النوم أحيانا لتبحث عن سروال تركته فوق أحد أسرة هذه الأحلام التي تُضطر إلى وصفها بالكوابيس، وتشرع تُعلم نفسها كراهيتها، بنفس الدأب والإخلاص الذَين علَّمت نفسها بهما اجتناب الناس والمحافظة على أسنانها لأن: «من خاف سَلم» ولكنها بعد كل الحرص، تُصدم هذا الصباح، حينما تحس بألم من الماء البارد يؤكد وجود فجوة عميقة نتيجة تسوس بأحد أضراسها. فجوة تقوض الأمان الحديدي الذي بذلت جهدًا هائلاً لتجنيه، تجعلها تعاني

ألمًا أكبر بكثير من حقيقته، وتفتح باب الذعر على مصراعيه، تتساءل: ترى؛ من يتجسس الآن على خلاعة أحلامي؟

*على صفحته الشخصية كتب عن آدم الذي يحب حواء وعن حواء التي تحب آدم منذ بدء الخليقة، منذ زمالتهما أيام الدراسة الجامعية، بينما يفكر بأنهما منذ زمن طويل لم يعد أحدهما يحب الآخر، فالحب لم يبق منه سوى أنقاض، لكن الجميع: الأبناء والأهل والأصدقاء «الذين صاروا آلافًا بمواقع التواصل» ما زالوا مصرين على وجوده ولو كشبح يطفو فوق جثتيهما، تمنى أن تتركه لكنها لم تفعل، وأخفقت محاولاتهما لتحسين العلاقة، يصارح نفسه، فلم يعد بإمكانه ادِّعاء استتباب الأمن والأمان، فكل تقاطع بين نظرتها ونظرته يبدو كحادث تصادم ويؤكد وجود فوضى «لابدة» لا تحرض إلا على جريمة ما. أنه خائف من نفسه، حائر، ولا بد أنها مثله، يفكر، يأسف لافتقاده موهبة البوح وشجاعة مواجهة توقعات الآخرون، فكل ما تعلمه عن الرجولة والكياسة يخص الاحتمال. ومع ذلك يضبط نفسه أحيانا يفكر في الجريمة الكاملة، ومن منهما سيرث أكثر إذا بادر بقتل الآخر؟ يرد بإبهامه طربوش البورسلين السائب فوق السن المهترئ، ثم يذهب ليضع «لايك» على عباراتها «المفخخة» المأثورة امتثالاً لتوقعاتهم.

*هذه المرأة لا تكف عن إغراق صفحتها بصور القطط، ولا تحب أن يدري أحد عن شغفها بالقفز عاليًا وكتم آهة الاصطدام الذي تعرف بحدوثه مسبقًا، وفيما يبدو أنها تجهل

السـبب الحقيقـي في الانخفـاض المُقبـض للسـقف، ومـع ذلـك تسـعى لهـذا الاصطـدام، لأنهـا ترغـب أن ترفـع هـذا السـقف قليـلاً، حتـى لـو بـدا صعبًـا أن يرتفـع بشـكل ملمـوس مهـما بلغـت القفـزات ومهـما كان تتابعهـا. وحتـى لـو أملـتْ أن تسـتعين بقـرون فحلـة «لا أُذني قطـة رقيقـة» لتنطحـه وتحطمـه، وتسـتعين كذلـك بأنيـاب مصـاصي دمـاء تُرهـب بهـا مـن يفكـر أن يمنعهـا، لكنهـا لم تفعـل، فقـط اختـارت اسـم «خالـدة بنـت الوليـد» ومنحتـه كامـل عفويتهـا وجموحهـا وأحلامهـا، وكل الحريـة في التعبـير بصفحـة مسـتقلة. تختـار خالـدة بنـت الوليـد أيقونـة صفحتهـا: ثـوروا تصحـوا. هـي أيضـا مصلحـة اجتماعيـة، متحـررة عاطفيًـا. ثـم تبـكي «القطـة» وتتعجـب كيـف تـسرق منهـا «خالـدة» كل هـذا الإعجاب والمشـاركات؟! كيـف تسـتأثر بـكل هـذا الحـب؟! ولمَ لا تسـتطيع هـي أن تكونهـا؟! مـا الـذي يمنعهـا؟ تنكـش شـعرها وترقـص عـلى أنغـام «شـاكيرا» ثـم تـسرع إلى صفحـة «خالـدة».

أتـرك القطـار ورائي، ثـم أضغـط زر الإغلاق لكي لا أراهـم، ولا أراني، ولا أتحسـس سـني المخلخلـة ولا بـاب النجَّـار، لكـن أصواتهـم تظـل بمخيلتـي، بعضهـم يتهمنـي بتشـويهه، يرفـض انتهـاك خصوصيـة جنونهـم، ثمـة مـن يكتـب، يكـذب، أو يقهقـه مـن هتـاف عـادل إمـام:

-أنا رُكبي حديد.

ثمة من يستمر بالغناء لمحبوبه..

مسكين من يطبخ الفأس

ويريد مرقًا من حديده.

مراوغات بسيطة

ضخم الجثة طويل الشعر جهم الملامح خليقٌ بأن يكون هو السفّاح الذي أخبرتني سِتي «حنونة» عن أنه يقتل النسوان.. يجدون جثثهن العارية طافية فوق سطح البحر الذي يُطلقون عليه بحر موسى، بينما وفقا لكتاب المدرسة له وصف آخر...

- هو بحر؟ ولّا نهر؟ أسأل أستاذ الفصل فيبتسم:

- هتفرق معاكي إيه!

عندما أخبرتها إني رأيت السفاح وهو يكوِّم الجثث فوق بعضها.. عارية وشاحبة إلى أقصى حد ثم يشحنها في النصف نقل التي تأخذ طريق الأسفلت ضحكت سِتي حنونة وقالت:

- قصدِك الواد زعيزع بتاع ورشة المانيكانات؟! مصمصت شفتيها ثم استطردت:

- يا ماما دول بلاستيك.. بلاش هبل، نامي.

لم أنم ولا حتى بعد أن تسلقْت في اليوم التالي السور ووصلْت إلى النافذة، بسرعة في ضربات قلبي وحدة في نظرة عيني جعلتني أرى من بين خصاص الشيش «أبلة فايزة» جارتنا الشابة ترتجف، من شدة الذعر، فيما ينزع عنها السفاح ثيابها قطعة بقطعة..

التقطتُ أنفاسي بصعوبة وأنا أجري في الشارع ثم أقفز درجات السلم، وعند بسطة الشقة التقيتُ سِتي حنونة فصحتُ:

- السفاح هيموِّت أبلة فايزة، الحقيها.

- إيه؟! إهدي بس.

لم أهدأ.

- قلّعها هدومها كلها وهيموتها.

فوجئتُ بها مذهولة:

- مين؟ زعيزع؟!

أومأتُ برأسي إيجابا فإذا بها تنفجر مقهقهة، وتروغ عيناها يمينًا ويسارًا فصحتُ متعجبة:

- باقول لك هيموِّت أبلة فايزة.

علا صوت لهاث عم نبوي طالع السلم يجرجر قدميه العجوزتين...

- حد بيقول أبلة فايزة؟

غمزتْ لي سِتي حنونة بعينها كي أصمتَ، فقابلتُ ابتسامته الطيبة بابتسامة كاذبة وخبيثة - تعرفتُ عليها هذه اللحظة ولم

أنسَـها بعـد ذلـك قـط - فيـما ردتْ هـي بثبـات:

- لا ياخويا مانستغناش.

لم تضطـرْ بعـد ذلـك لتخويفـي مـن نـزول الشـارع بقصصهـا المرعبـة عـن خصـلات الشـعر المقصوصـة، أو عـن الكعـوب العاليـة الرفيعـة لأحذيـة نسـائية غطـتْ نقوشـها قطـرات دمـاء، لأن أبلـة فايـزة تكفَّلـتْ بإراحتهـا مـن مشـاوير التسـوق ومـن أعـمال أخـرى بالبيـت «ردًا للجميـل»، لكـن هـذا لم يمنعنـي مـن انتهـاز الفـرص، بـل وأحيانـا النبـش بحثًـا عنهـا، للتلصـص عـلى تفاصيـل التعذيـب المتبـادل بـين كثيريـن مـن سـفّاحين وسـفّاحات بلدتنـا، خاصـة في وقـت التمشـية والتنـزه عـلى كورنيـش البحـر.. الـذي ربمـا يكـون نهـرًا.

مِداد البحر

- «زليخة» تجلب الفقر. لن أعيش معها في بيت واحد.

هـذا مـا قالـه أخـي الكبـير قبـل أن يجمـع أوراق مشروعاتـه الخـاسرة ويغـادر البيـت. حدقـتْ بي أمـي طويـلاً ثـم جلسـتْ تدنـدن عـلى عُـود أبي المتـوفى قبـل شـهور، وتقـول: هـوَّ حُـر.. يقعـد مطـرح مـا يحـب.

وفي الليـل ألمحهـا مُسـهدة وحزينـة. ذهبـتُ لأخـي وأخبرتـه أن السـلحفاة غـادرتْ، فعـاد. كنـت قـد خبأتُهـا تحـت سريـري واتفقـتُ معهـا ألا تصـدر عنهـا أي حركـة، ناهيـك بكونهـا مـن الأسـاس لا تصـدر عنهـا أي حركـة. لكنهـا فهمتنـي عـلى أي حـال، كل يـوم أضـع لهـا وريقـات الخـس الخـضراء فتـأكل وتكـبر، فنسـهر ونغنـي ونـأكل، فتكـبر ويعلـو السريـر، حتـى اكتشـفَها أخـي فثـار، وكان عـلى وشـك المغـادرة وكانـت أمـي عـلى وشـك أن تنحـاز لي مـرة أخـرى لمعرفتهـا بمـدى تعلقـي بزليخـة، فاسـتبَقتُها وأقسـمتُ إننـي سـآخذ زليخـة إلى البحـر وأدفعهـا لتبتعـد داخـل الميـاه. نزلـتُ لهـا تحـت السريـر ولم أضطـر لـشرح شيء، فقـد كانـت تفهـم كل شيء، وعندمـا خرجـتْ معـي رأيـت مكانهـا تحـت السريـر بيضتـين كبيرتـين، أصابتنـي الحـيرة وفي النهايـة تركنـا البيضتـين وسرنـا أنـا في المقدمـة وهـي ورائي حتـى وصلنـا إلى البحـر، دفعتهـا قليـلاً آملـةً أن تتحـرك وحدهـا فلـم تفعـل، ركبـتُ فـوق ظهرهـا وجدَّفـتُ بسـاعدي فتحركـتْ قليـلاً، شـيئًا فشـيئًا صرنـا في قلـب البحـر، وبـدأ

الظلام يهبط والرياح تثور، أنتبه وأغفو، والليل يصافح النهار وأحيانا يخاصمه، والأمواج تعلو فتعلو بي زليخة حتى ننجو ثم تهبط، ولمّا سكنت الريح وهدأ الموج راحت تغوص بي، بعد أن دبرتْ لي مرورًا آمنًا تحت صدفة كبيرة مدهشة تشبه القناع، لم أقرأ عنها في أي كتاب من قبل، رغم شغفي بقراءة الكتب، خاصة كل ما كتب عن الأحياء المائية. أعارتني «زليخة» هذه الصدفة التي أمدتْني بما أحتاجه من خياشيم لكي أتحوَّل، في التو، إلى فصيل البرمائيات، كما أننا مهَّدنا عودًا طويلاً من البوص ودعمناه بصحائف صخرية متينة كي يرتفع وقت اللزوم فوق سطح الماء، وهكذا بلغنا أدغال شعاب مرجانية وغابات شاسعة تحت سطح البحر، تسكنها قطعان من الحيتان وتخبئ فيها غذاءها من اللافقاريات والحبَّار، أمكنني أن أرى البحر أرضًا وسماء، ليله ونهاره وأسراره، وأن أتعرفَ على قنفذ البحر وأتجنب وخزاته، ذهلتُ من براعة نجم البحر في فتح صدفة المحار والتهام الحيوان الصغير بداخلها، ومن قدرته على طرد معدته كلها إلى الخارج، ومن قدرة أنثاه على وضع ملايين البيوض. صادفنا انفجارًا مروعًا قوض كهوفًا فانبعثت منها عوالم أصغر: مرجانيات، رخويات وإسفنجيات، حلزونات، خرطوميات الجوف، وكذلك تعرَّفتُ أسماكًا لم أكن رأيتها من قبل، كسمكة الفراشة وسمكة الشِراع وسمكة الصندوق، وتعلمتُ صداقة الدلافين الناعمة وتجنب شوكيات الجلد، رأيتُ السمك الكبير يبتلع السمك الصغير دونما رمشة عين تشي بتأنيب الضمير، ورأيتُ آدميين، بحَّارة وجنودًا، لفظتهم البواخر ودثرتهم

الدوَّامات في أكفانٍ من الرمل حالت دون تحلل جثثهم وبدوا كتماثيل منحوتة بالصخر.

لا أعلم متى بالضبط أدركتُ أن الوقت تأخر، وكنا سنعودُ أنا وزليخة أدراجنا لولا أن ظهرتْ أمامنا سمكة بشعر يغطي بلادًا بأكملها، قالت إنها البنورة.. رسولة الماء والهواء، والتاريخ والجغرافيا.. المتصوفة في محراب المعرفة وخاصة معرفة الذات التي تخرج منها باللآلئ. أحبتني البنورة كأنني ابنتها وصرتُ مكفولةً من الاثنتين، زليخة تكفلتْ بمتطلباتي البدنية، بما في ذلك تدبير أغذية الحديد لتعويض جسمي عما يفقده في دورة الثمانية وعشرين يومًا، وكذلك حمايتي من أشعة الشمس أوقات الذروة حتى لا يصاب جلدي بالحروق أو أتعرض لمرض خطير؛ فيما تكفلتْ البنورة بدفعي داخل متاهات حكاياتها، وإكسابي مهارات التأمل والتحليل وغيرها من المتع الذهنية، إلى أن اجتاحني هاجس قلَق والدتي عليّ، وسلبني متعتي فأدركتُ أنها ساعة العودة...

لحسن حظي أن رئتيّ ظلّتا طوال تلك الفترة محتفظتين بكامل اللياقة، فسرعان ما استعدت طبيعتي البرية. لم يعرفني أهل بلدتي للوهلة الأولى، واحتجت أنا أيضا لفترة حتى أتذكر بعضهم؛ وجدتُ أمي وقد بدت عجوزًا، بينما ثيابي التي تركتها لا تغطي سوى ثلثي قامتي، واكتشفتُ أنني غبتُ لأكثر من عام. قالتْ أمي عندما لاحظت استيائي من منظر البيت إن أخي لم يترك سوى منخل كبير، تقضي نهاراتها تغربل البندق

لأجل الفنادق وتتقاضي ما يسُّد، بالكاد، رمقها. وكان عليّ بالتالي أن أفكر فيما سأفعل لكي أعيش، خاصة أن «زليخة» تعبتْ وما عادت قادرة على إعادتي للبحر، كما أن اللآلئ التي ادخرتُها من رحلتي لأجل أمي ضاعت دون أن أنتبه، إضافة إلى كَون الرحلة قد ضيَّعت عليّ فرصة استكمال تعليمي مثل باقي البنات، لكنت أعمل بوظيفة معتبرة. لكن لا شيء لديّ، لا شيء عدا.. إذا أمعنتُ النظر داخل نفسي طويلاً فسأجد أنني أمتلك ذاكرتين لحسن الحظ، ذاكرة الكتابة التي كنت بارعةً فيها منذ يفاعتي، وذاكرة البحر وبنورته وباقي سُكانه: طيبين كانوا أو قساة؛ وبالتالي ليس من بديل عن كتابة هذه الحكايات التي يمد لي خيطها تلك الفسائل الرفيعة من الخياشيم التي ألفظها مع سعالٍ مائي من نوع خاص يضخ، على الفور، نشوة الإبحار في دمائي. وأول هذه الحكايات ستكون عن مصير بيضتين.. أخبرتني أمي أن أخي حصل على ثروة جيدة من بيعهما، بعد أن وجدهما تحت سريري، بيضتين ندمَ على بيعهما لأن من اشتراهما أثرى ثراء هائلاً بفضلهما، بينما بدد أخي كل ما لديه.

تبادلت وزليخة النظرات، ورغم حزني على سفره لم أتمالك نفسي من الضحك.

الشارع

ارتعشتْ عيناه المُغلَقتان ورموشه المتشابكة وهو غائب عن الوعي يتمتم بِنُتف كلمات غير مفهومة، شيئًا فشيئًا راحتْ تمتمته تصبح همسًا، ثم راح همسه يتحول إلى صراخ هستيري ينتفض على أثره جسمه المقيد الأطراف إلى زوايا السرير الأربعة «حماية له من إيذاء نفسه» وتبرز عيناه من محجريهما. استمر لدقائق في نحيب موجع إلى أن همدتْ طاقته وفقد الوعي مرة أخرى.

خلعتُ المعطف الأبيض واستبدلتُ بنظارة القراءة الأخرى الخاصة بالمشي. بداية اليوم كانت نهارًا شتويًا حارًا، وعندما وصلتُ لمعاينة مكان الحادث كان الليل موشكًا على الهبوط والجو آخذًا في التَلطُف.

أخذتُ بنصيحة زميلتي ولم أدخلْ الشارع.. «لا من جهة الميدان، ولا من طريق المدرسة القديمة، بل من زقاق رفيع تفتح نهايته على الشارع، منتصفه تقريبا». أخبرتني كذلك عن «أم فاروق» بائعة الجرائد التي تسمع دبة النملة بالشارع وتعرف كل ما يجري.

في منتصف الزقاق رأيتُ عجوزا تقف امام بوابة بيت من ثلاثة أدوار، أشارت لشباك الدور الأرضى مبتسمة:

- اتفضلي عندنا. ماينفعش حد يعدي كده.

لم يبـقَ برأسـها شـعرة واحـدة سـوداء، لكـن ضحكتهـا حلـوة، وعصـير البرتقـال كذلـك. حكـت عـن هجـرة أولادهـا وعـن وحدتهـا، وأصرت أن أُكمـل الكـوب وعندمـا صرتُ عنـد البوابـة اسـتوقفتني:

- أنا عارفة سبب مِجِيِّك.

وأشارت إلى الشارع، إلى أسلاك الكهرباء بين عمودي إضاءة:

- ملايكـة بجناحـات سـودا كبـيرة. يقفـوا عـلى السـلك صـف واحـد.. ويدندنـوا. باسـمعهم بالعافيـة. المـرة الأخرانيـة قالـوا هـاتي لنـا ربـع لـب عبـاد الشـمس مـن المقلـة. عـلى بـال مـا رجعـت مالقيتهومـش.

كل شيء كان مـاشي تمـام لغايـة موضـوع لـب عبـاد الشـمس! ودعتهـا وضحكـتُ في سري.

قبـل نهايـة الزقـاق رأيـتُ تيـار ميـاه نـازل مـن أعـلى بنايـة قديمـة مـن طابـق واحـد. اكتشـفتُ متأخـرًا أنـه بـول، فَهتفـتُ أُوبـخ الصبـي الـذي «عملهـا» مـن فـوق، تراجـع عندمـا رآني وفي ثانيـة كان بجـواري في الشـارع. توقعـتُ أنـه أتى ليعتـذر لكنـه لم يفعـل. كانـت ثيابـه مهلهلـة، وقدمـاه حافيتـين متسـختين، وحالـه تؤكـد انتـماءه لمـن يطلقـون عليهـم «أطفـال الشـوارع» خاصـة عندمـا لمحـت جرحًـا قطعيًـا أسـفل عينـه...

-مش جرح. دي شامة. عشان كده بيقولوا لي سيد أبوشامة.

سألته عن أم فاروق، في لحظة كان يتقدمني حتى دخلنا الشارع. توقف أمام «فرشة» أي غطاء، تظهر أطراف الكتب من تحتها. وفي لحظة كاد يختفي لولا أنني أشرت له لكيلا يبتعد. اقترب وانتظر ليرى كم سأعطيه... ثم قال:

- أنا عارف كل حاجة بس مش هاقول أي حاجة.

لم أعلق، وبينما نحتسي الشاي الذي أحضره من مقهى بالشارع المجاور قال:

- حسن قال مافيش عفاريت. الشارع ده مافيهوش عفاريت خالص.

وكان انتباهي مشدودًا إليه عندما لمحتُ شيخًا على الناصية المقابلة يحمل قارورة ماء وممسحة. التفتُ للولد «سيد أبي شامة» يقول:

- حسن قال إنه شاف بعينيه اللي هياكلهم الدود.. جدعان بتطير فوق العواميد.

- تطير؟ لم أستطع منع نفسي من الضحك. بدا مغتاظًا، صمتَ لحظة ثم ردَّدَ بثقة:

-أيوه بتطير. مش واحد. ده صف طويل. أغلبهم بترنجات وشباشب. بس إيه.. جامدين

حسن مايكذبش.

- وفينه حسن ده؟

أشاح بوجهه بعيدا وبعد لحظات لم أجده بجواري، وفيما تلفَّتُ بحثًا عن أم فاروق لفتني انهماك الشيخ في سكب الماء على الأسفلت ودعكه بالممسحة. أتي صياح من أعلى، فارتقيت ببصري فرأيت امرأة تناديه أظهرت الكلمات أنها ابنته، ورد هو:

- مش طالع. الحتة مش راضية تنضف أعملك إيه؟

وعندما لمحني وجه إلى كلامه شارحًا:

- الأرض بتتقيا كل اللي شربته غصب. دم ولاّ عرق ولّا دموع... كله كان غصب.

تعالى نداء ابنته. نظر نحوي شاكيا:

- أعمل لها إيه دي! مش فاهمة حاجة. همستُ:

- ماعلش. ويبدو أنني حركت قدمي لأنه بادرني منفعلاً:

- حاسبي. دي دموع اللي انتي بتدوسي عليها.

- دموع؟! أحسست بشيء يهتز داخلي. استجمعتُ نفسي قليلاً، وركزتُ على ضرورة إنجاز مهمتي فسألته:

- ماتعرفش أم فاروق فين؟ حدق بي، فأردفتُ:

- عايزاهـا ف حاجـة ضروري. راح يضحـك ثـم انهمـك في مسـح الأسـفلت مجـددًا، وعندمـا اقتربـت الممسـحة مـن قدمـي فضلـتُ الابتعـاد بالاتجـاه الآخـر، ومـددتُ الخطـى لاستكشـاف امتـداد الشـارع فاسـتوقفني صوتـه صائحًـا:

- لأ بلاش تبعدي. كفاية اللي جرى.

-إيه؟!

فتـح فمـه ولم يقـل شـيئًا، فقـط صـوت كبـح للكلـمات مثـل غلـق ضلفة دولاب.

"هـي ليلـة مـا يعلـم بهـا إلا ربنـا» قلـت لنفـسي وأنـا أفكـر في الهـرب. أحسسـتُ بنقـرٍ عـلى ظهـري فالتفـتُ فـإذا بهـا شـابة جميلـة متلحفـة عبـاءة سـوداء، قالـتْ:

- عايزة أسألك سؤال يا ست الدَكتورة.

اندهشـت مـن معرفتهـا بـأني طبيبـة. وقبـل أن أقـول شـيئا أردفـتْ:

- هـو الغـاز لـه طعـم؟ ولّا السـحابة السـودا هـي الـلي عملـتْ كـده؟ ولّا يكونـش النكَـد؟ وبـأسى:

- مابقيتـش عارفـة آكل ولا أشرب. بقيـت أنـوي الصيـام واقـول أهـو يبقـالي عنـد ربنـا. صُمـت كتـير وصَليـت ياما... لغايـة مـا تعبـت، ومافيـش حاجـة بتتعـدِّل.

أردت أواسيها ولو بكذبة فهمستُ:

- ماعلش. أكيد هنلاقي حل.

ابتسمتْ فسألتها:

- ماشفتيش أم فاروق كنت عايزة أسألها على حاجة. ضحكتْ وهي ترفع ذراعيها لأعلى متضرعة، ثم تلتفتْ نحوي:

-عايزة تسألي أم فاروق! تشخر. السؤال لغير الله مذلَّة.

تقهقه وتنحني فتسقط العباءة «يبدو شبكت في مسمار أو خلافه» ويبين تحتها قميص داخلي قصير كاشف لصدرها ووركيها. تلتقط العباءة وتصيح مشوحة بذراعيها وساقيها: لأ.. ابعدوا عني.. لأ. ابعدوا يا كلاب سعرانة...

ويظهر الولد سيد أبوشامة يقترب ويحوم حولي فأحكم قبضتي على حقيبتي بينما أسمعه:

- أنا عارف كل حاجة بس مش هاقول أي حاجة.

وفي اللحظة التي كنت أتوقع أن يمد يده نحو الحقيبة وكنت استعد لصفعه، انثنى متألمًا من بطنه وأخذ يتقيأ، ويلحقه الشيخ بسكب ماء القارورة الذي يتحرك محدثًا انزياحًا للوسخ، ثم تأتي الممسحة لتدفعه حتى بالوعة صغيرة بجانب الرصيف.

كانت امرأة العباءة ما زالت تبكي بجوار الولد عندما ظهرت

عجـوز البـدروم وهتفـت لمرآهـما: يـا كبـد أمكـم! وأخذتهـما «المرأة والصبـي» لداخـل الزقـاق المظلم.

ظهـر رجـل متوسـط العمـر آتيـا يعـدو مـن طريـق المدرسـة القديمـة ومـا أن اقـترب مـا يكفـي لوصـول صوتـه إلينـا حتـى هتف:

-قوم فز ياض منك له. كله يقف انتباه للباشا رئيس النُظار.

ينفجر الرجل الذي يمسح في الضحك ويصيح:

- اخـرس يـا حرامـي الحلَّـة. باشـا مـين ونظَّـار مـين؟ ده كان زمـان.

يرد آخر «شاب» آت من الزقاق:

- أنـا هاسـتقيل مـن تدريـس التاريـخ. مـش عـارف الباشـا ده مـين بالضبـط؟ كل ليلـة بيجينـي في المنـام. مـرة عايـش في دور الوطنيـة وبيناطـح في الإنجليـز، ومـرة شـايل كلبشـات كبييـرة وعَـمَّال يكلبـش كل الـلي يفتـح بُقـه.

يهتف أبو ممسحة:

-الباشا ططظ. محشي رز.

تنفجـر الضحـكات. لا أعـرف مـن أيـن أتى كل هؤلاء النـاس، وكيف اختلـط النـور بالظـلام بألـوان الطيـف، ولا كيـف انبثـق كل هـذا القلـش والقهقهـات والصيحـات، ويبـدو أن مطـرًا تسـاقط واندمـج

بالدمـوع وبتيـارات شـبيهة بالبـول فـوق الـرؤوس، وأشـارت امـرأة أتـت مـن خلفـي إلى وريقـات شـفافة تتمايـل مـع قطـرات المطـر، وقالـت إنهـا أغشـية بـكارة جنيـات منـذورات لأحـلامٍ تعِسـة..

لا أعـرف أيضـا كيـف أحسسـتُ بهـا بجـواري فسـألتها: إنتـي أم فـاروق؟ وبعـد أسـئلة أخـرى، ومحـاولات منهـا للإجابـة مسـتعينة بإشـارات الوجـه وحـركات اليديـن والأنامـل، اكتشـفتُ أن أم فـاروق خرسـاء. عـدا أنهـا أشـارت للحائـط، وقامـتْ بالعبـور معـي امـرأة أخـرى حتـى صرت عنـد المـكان الـذي أصيـب الرجـل الراقـد بالمستشـفى عنـده بنوبـة الذعـر؛ كان، حسـب روايتهـا، مكلفًـا بإعـادة طـلاء الجـدار، راح يسـكب الألـوان بغـزارة عـلى الكلـمات وخطـوط الوجـوه المرسـومة قبـل شـهور وبعـد أن محاهـم تمامًـا أحـس فجـأة بهـم «بلحمهـم ودمائهـم» يـبرزون مـن داخـل الجـدار ويتحركـون باتجاهـه، فهـوتْ مـن يـده صفيحـة البويـة، رمـى بالفرشـاة وجـرى مذعـورًا.

ليلـة مـا يعلـم بهـا إلا ربنـا. مـع خطـوات خروجـي تسـاءلت إن كان هـذا هـو الشـارع المقصـود. إن كانـت أم فـاروق هـي أم فـاروق فعـلا. إن كنـت أنـا.. بالفعـل أنـا.. أم...

فهرس

رسائل بظهر الغيب ٥
عراء ١٣
قبعة وبدائل أخرى ١٧
غبار ٢٣
حكاية لَوحة ٣١
عنوة ٣٧
برام فخّاري قديم ٤١
السن الذهبية ٤٧
حائط غاندي ٥٧
سويتر جلد بني ٦١
رسم بقلم الرصاص ٦٧
رسالة علياء ٧٣
حرير منزلي ٨١
عفاريت النزلة ٨٧
جلد سلخته الشمس ٩٣
خوذة روميل ٩٩
قطار ١٠٧
خاتم ١١٧
تلصص على أنقاض ١٢٥
مراوغات بسيطة ١٣٥
مداد البحر ١٤١
الشارع ١٤٧